الياس خوري

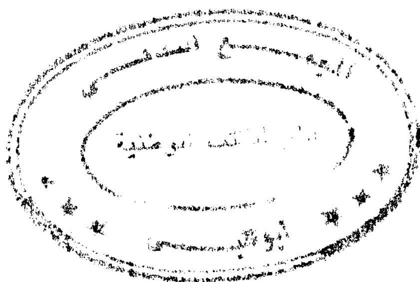


عَن علاقات الدّائرة

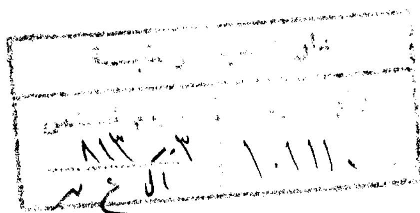


مؤسّسة الأبحاث العربيّة ش.م.م.

الياس خوري



عن علاقات الدائرة







مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

* الياس خوري : **عن علاقات الدائرة**
* الطبعة الأولى ١٩٧٥ . الطبعة الثانية ١٩٨٥

* الناشر: **مؤسسة الأبحاث العربية**، ش.م.م. ص.ب ٥٠٥٧-١٣ (شوران) هاتف ٨١٠٠٥٥ - بيروت، لبنان .
* الغلاف والرسوم الداخلية لمحمود الزيباوي .

إلى نجلا

- ١ -

تقـدم الكرسي. عـلى يمينه يتمـوج الثوب الأسـود الطويـل. والعيون الـواسعة تحيـطني من جميع الجهـات. لم أدر لماذا بكيت. كـانت الطلقـات تتدافع من فوهة فمي وأنفي دون أن استوعب ماذا يجري. نظرت، الكرسي يتقدم، ورجل أصلع ذو كرش كبير يقف الآن إلى جانب الثوب الـطويل. عينان معلقتان، حول أسفل ذقنه شاميتان كبيرتان، وذقن كأنها شوك أسود لا يزال صغير الحجم لكنه قوي الرائحة. التفت صوب رجليّ، كان بنطلوني القصـير متسخاً قليـلاً، لكنه يتقـدم باتجـاه الكرسي. أحنى الثـوب الأسود رأسه، كان الوجه كبيراً، وتحت الأنف تالولة ضخمة تتحرك محدثة صوتاً لم أفهمه. فبدأت أنتحب. أخذني الثوب بين يديه. حملني وكلمني بهدوء.

سوف تجلس الآن على هذا الكرسي. الحفلة ستبـدأ، ومار اليـاس هو الذي سيتبناك.

فهمت كل شيء.

أبي سيأتي، قال الثوب الطويل.

وضعتني على الكرسي، وابتـدأت أستمع إلى نغم جـديد. نـظرت إلى أعلى، فرأيت الشاميتين الكبيرتين إلى جانب الثوب.

ـ ستبـدأ الحفلة الآن، عليـك أن تقص لـه شعـره. ثم تـأخـذه إلى

الكنيسة. هذه أول حالة من نوعها.

اهتز الكرسي وتحركت الشاميتان إلى أسفل.

- عادة لا نقبل أولاداً في هذا العمر.

ابتدأ المقص يحدث صوتاً جديداً وغريباً.

- لماذا لم تغسلوا له شعره؟

تموج الثوب الطويل وهو يغادر.

تطل نافذة الغرفة الفسيحة على ملعب غير مسقوف، والسماء زرقاء. نظرت إلى أصابعي، فرأيت الخطوط البيضاء تحت أظافري تكبر. سمعت قرقعة، نظرت إلى أعلى، كان الحيوان الأسود يفتح فمه ببطء شديد. لم تكن له أسنان، سقط على رأسي وبدأت الموسيقى تعلو وتساقط المطر من جميع الجهات. نظرت إلى السماء الزرقاء جداً، لا يتساقط المطر منها. نظرت إلى السقف، حبات من المطر الأسود تملأ سماء الغرفة، وتهطل بغزارة. الثوب الأسود في جميع الجهات، والمطر الأسود في جميع الجهات. بدأت الخطوط البيضاء تحت أظافري تعلو ببطء شديد، وعندما وضعت يدي على رأسي بدأت أبكي. اهتز الكرش وهو يصدر قرقعة عالية، وأتى الثوب الأسود إلى جانبي، خرجت من جنبه الأيمن يد بيضاء فيها محرمة وبدأت تمسح دموعي. ثم سمعت صوتاً ناعماً: لا تبك، يا ولد.

حملني الثوب عن الكرسي، أخرجني من الغرفة إلى رواق طويل
- اسمك؟

(الطفل يرتجف). جلست على الأرض.

- يا أخت بربارة، يا أخت بربارة. الولد لا يعرف اسمه. وابتدأ الضحك.

ـ ماذا سنسميه؟

ـ إبراهيم، جورج، حنا . .

ـ لالا . اسمه منصور وسنسميه منصور.

منصور اسم جميل، صرخ الثوب . وتقدم نحوي .

ـ اسمك منصور يا ولد .

أمسكني الثوب بيدي ، ومشى عبر الرواق الطويل، ثم استدار نحو اليسار وفتح الباب. دخلنا معاً. دوش في السقف، وإلى جانبي حنفية ماء منخفضة والأرض صفراء اللون. بدأ ينزع ملابسي، ثم اجلسني على طبلية خشبية. فتح الحنفية، أمسك بطاسة مليئة بالماء وابتدأ الماء البارد يتساقط على جسمي . توقف نزول الماء .

ـ سأرجع بعد خمس دقائق .

خرج الثوب الأسود، وبقيت وحيداً. كنت عارياً على طبلية الحمام، نظرت إلى جسمي ، بدا لي أن عدد أصابع رجلي اثنا عشر أصبعاً. أعدت العد، عشرة أصابع، وابتدأت أضحك. فتح الباب، جاء الثوب الأسود وهو يلبس مريولاً . نظر إليَّ، ثم انحنى صوبي. كانت ثلاث شعرات سوداء دائمة الحركة، تتجمع حول التالولة الكبيرة. أخذ الصابون وبدأ يدلك جسمي ، سكب الماء البارد. ثم جلب منشفة كبيرة. أعطاني بنطلوناً وقميصاً أصفر اللون. لبستهما.

ـ يا ولد يا منصور. سوف تأكل الآن مع الأطفال. تعال معي ، سأخبرك القصة من أولها.

دخلنا غرفة جديدة. ذهب الثوب الأسود وجلس خلف طاولة . بقيت واقفاً.

ـ اجلس يا ولد يا منصور. هذا كرسي.

تقدمت من الكرسي، وضعت يدي عليه، رأيت أصابعي والخطوط البيضاء. حاولت الجلوس، لا أستطيع ـ صار خشبة ـ وضعت يدي على شعري. ـ أين شعري يا..؟ نهض الثوب الأسود، ضمني إلى صدره. اجلس يا ولد يا منصور.

نحن دير. هذا البيت هو ميتم. الميتم بيت. نجمع فيه الأطفال الحلوين، يدرسون، يعيشون بالمحبة. ثم يخرجون إلى الحياة عندما يكبرون. إنهم يا منصور أنت تعرف أشياء كثيرة. الأولاد هنا لا يعرفون الكثير عادة لا نجلب الأولاد من الشارع، لكن أنت حالة خاصة. طبعاً تتذكر يا ولدي يا منصور أنك كنت نائماً على الرصيف، كانت يدك اليمنى مطعوجة تحت رأسك، فأشفقنا عليك. قلنا ولد لطيف نجلبه إلى الدير. وأنت طبعاً تتذكر كيف جاءت الأخت بربارة وحملتك إلى هنا وكنت تبكي. نحن يا ولد يا منصور نحب الأطفال، لأن الله يحب الأطفال. سوف تدخل مدرستنا. وتتعلم الصلاة. ونعطيك مهنة، ثم تخرج من الميتم. طبعاً طبعاً، ستصير رجلاً بعد عشر سنوات وعندها سوف تذكرنا بالخير. الآن يا منصور ادخل إلى الكنيسة وصلّ أمام الأيقونة الكبيرة. ثم تعال تناول الطعام معنا.

فهم منصور كل شيء. الأيقونة، الكنيسة. وأهم شيء هو الأكل. أنا جائع.

كان السكون القديم يمتزج برائحة الشمع المحترق. الظلام. يضيء على جانبيه عيون القديسين والرائحة العتيقة. نظر منصور المكان القديم. يد الراهبة تقوده نحو مدخل الهيكل. ركع منصور. توقفت كل الأصوات. وخرج من رائحة البخور صوت القداديس المستمرة عن أرواح الموتى.

منصور لا يزال جائعاً، وأصوات القديسين تخرج من أفواه الباطون الذي يفرش أرض الكنيسة. نظر منصور أمامه. الظلمة ليست كثيفة. لا نزال في النهار، لكن غبار الأيقونات يعطي شعوراً حاداً بالليل. ترتعش أصابعي. وهو يركع أمام الهيكل.

- الكتاب، امسك الكتاب.
- جيوش النمل.
- اقرأ الكلمات
- جيوش النمل.

الكلمات نمل، فكر منصور. شيء حلو. رصيف، كتاب ونمل، الأب والابن والروح القدس قالت الراهبة إلّه واحد آمين ردد منصور وراءها.

سقط الكتاب من يدي. جلدته السوداء العتيقة تتمزق. وقف منصور.

- اذهب يا ولد إلى أمام تلك الأيقونة الواسعة. قف أمامها بخشوع وصلّ. إنها أيقونة مار الياس الحي. مار الياس لم يمت، لا يموت، وهو الذي يتبناك.

تقدمت الأيقونات في صف طويل، استدارت يساراً، وطوقت منصور، على اليمين كانت الأيقونات تتلوى وعلى اليسار كان ظهرها يحدودب قليلاً وفي الوسط منصور يمسك المبخرة. وخرج الله على شعبه بصوت عظيم.

- نقصّ لك شعرك حتى لا يصير مكاناً للحشرات، أين تعتقد نفسك، أنت في ميتم. الميتم ليس فندقاً سياحياً. إنه مكان للعمل. لا تقل ما ذنبي. ذنبك هو الرصيف. ضربتك الراهبة ستكسر رقبتك في المرة الثانية. أين تعتقد نفسك. لن تذهب. ستذهب غصباً عنك. يجب أن نعمل. الميت خشبة.

استدارت حركة الأيقونات. أصبحت أكثر سرعة. ولم ينقطع الوتر.

ـ تذكر يا منصور تذكر. أنت ولد عاقل وشاطر. كنت نائماً على الرصيف. جاءت الراهبة وحملتك. قبل هذا أين كنت؟ من هو والدك؟ طبعاً لم يحبل بك الرصيف، لا بد وأن تكون امرأة حبلت بك. تذكر يا ولد. اسمك منصور، طيب فهمنا، لكن ما هو اسم عائلتك. تذكر، لا تبك مثل الأطفال. أنت شاب. أنت ذكي. عجيب أمرك يا ولد، كيف نسيت. هل كنت تبيع العلكة طبعاً لم تذهب إلى المدرسة لأنك لا تعرف القراءة. تذكر يا منصور. مال الثوب الأسود. وابتدأ يهتز تحت أسئلة الأيقونات.

ـ يا ابني الماضي مهم. اسمع إذا كنت لا تتذكر. اسمع على الأقل. لماذا ترتجف وتبكي؟.

رقصت الأيقونات على حبال البخور المنتشرة، ولم يكن الكتاب في يدي، سقط الكتاب على الأرض. الباطون بارد. وابتدأ يحفر على ركبتي علامات سوداء. مددت يدي اليمنى تحت ركبتي. مسحتها. كانتا ملطختين بالدموع وأعواد الكبريت.

تقدم مني خرج من الصورة وفي يده طشت ماء. وانغلق الباب بعنف. أنا جوعان. وصمت القديسون وهم يغادرون الساحة. وانكسرت رجل أحدهم وهو يعود إلى الحائط.

أمسك الملعقة الكبيرة، تركها تغوص في صحن الرز وفتح فمه. كان يجلس على يمين طاولة مستطيلة. والسكون كان تاماً. المقعد الخشبي يزعج فخذيه، لكن رائحة الطعام جميلة. وكان السكون تاماً. تكون الملائكة حاضرة على مائدة الطعام. هكذا قال الثوب الأسود للأولاد. أكلت كثيراً. لماذا ينظرون إليّ؟ ضحك أحدهم، فانفجرت الطاولة بالضحك. لماذا

ينظرون إليّ هكذا؟ عيونهم معلقة على طرف فمي، والرصيف يمشي على ملعقتي، وتحت أسناني طعم الماء. عدنا إلى الأكل. تتحرك الملاعق باتجاه الهدف وتعود خالية.

ـ اسمي منصور، أجبته بفمي الملآن. أنا سعيد وأحبكم كثيراً.

تلمع الملعقة في يدي. قرع الجرس واندفعنا إلى الملعب الكبير. الشمس حادة. ركضوا، ركضت ثم مشيت ببطء. كل الرؤوس تشبه بعضها. اندفعت نحوهم ووضعت يدي على رأسي، وابتدأ المطر الأسود ينهمر.

الغابة بستان منظم الأطراف. يدور الشجر، لكنه يتوقف في مكانه. يلتصق الشجر بالتراب، يتشابه.

ـ هل رأيت غابة سوداء؟

ـ لم أر غابة في حياتي.

الغابة، قالت الراهبة، تشبه رؤوسكم. تتكون الغابة من مئات الأشجار المتشابهة. شجرة وحدها لا تساوي شيئاً. شجرة على الرصيف لا تعطي فيئاً. أما عندما تتجمع الأشجار في مكان واحد فإنها تصبح غابة. والغابة تعطي فيئاً. لهذا السبب جمعناكم في هذا البيت لتصيروا غابة.

ـ نعم. نعم.

الأطفال في الملعب والشجر يتحرك في جميع الاتجاهات. شجرة صغيرة تركض خلف شجرة كبيرة والباطون يلامس الجذور.

ـ ادخل إلى الغابة يا ولد يا منصور لا تخف ستصير شجرة. بقوة الروح

القدس ستصير. العب معهم.

ركض منصور نحو الملعب. المريول الكاكي هو عنوان الشجرة الجديدة. واندمجت المراييل، وابتدأ القفز واللعب وشد الحبال. ولم تكن الشجرة صغيرة.

وقفت وسط الملعب. الأشجار تدعوني إلى ملاقاتها. تقدم مني أحد الأطفال.

ـ أنت منصور الجديد. تعال والعب معنا.

هجموا تكاثروا. اعتقدت أنهم سيضربونني. لكنهم أحبوني. رقصت لهم رقصة فالتفوا حولي، ثم رقصت شجرة أخرى. دائماً نعتقد أن الجديد سيكون معزولاً وأن القصة سوف تكتب عن أحزانه وألمه وسط الغابة. لم يكن الجديد حزيناً. كانت الغابة كل شيء. فالغابة الحزينة لا تسمح لأشجارها بأن تحزن. الحزن ليس حالة، الحزن موقف.

نظرت إلى الشمس، تذكرني دوائرها الصغيرة السوداء بالشعرات الثلاث التي تهتز. ومشيت صوب الملعب. دخل جبيني. وفتح أمامي رواق طويل. ودخلنا جميعاً.

وقفت المعلمة.

ـ سأخبركم اليوم قصة جميلة. سوف نتسلى ونتعلم درساً مفيداً. كان يونان النبي مسافراً على ظهر سفينة كبيرة. هبت عاصفة هوجاء. شعر جميع المسافرين أن السفينة ستغرق في البحر. جمعهم القبطان وقال لهم. يجب أن نرمي أحدكم في البحر حتى لا نموت جميعاً. من يتطوع كي يموت؟ لم يتطوع أحد من المسافرين قرر المسافرون فيما بينهم رمي يونان النبي في البحر. تقدم منه أحدهم ورماه وسط الأمواج. بكى يونان لأنه سيموت غرقاً.

وابتدأ يغرق. تقدم منه الحوت(ورسمت الحوت على اللوح الأسود) فتح الحوت فمه وابتلع يونان. بكى يونان كثيراً ثم بدأ ينزلق في بطن الحوت، واستقر في معدته. صلى يونان إلى الله، ففتح الحوت فمه وخرج يونان سالماً. يونان هو الرجل الذي يحب الله. لم يقاوم الحوت. دخل إلى بطنه وخرج سالماً. الحوت لا يؤذي.

ـ أنت يا منصور. أنت جديد هنا.

وقف منصور أمام طاولته. ـ نعم نعم.

ـ أخبرنا. هل أحببت يونان.

ـ نعم أحب يونان

ـ والحوت.

ـ . . . .

ـ احك يا ولد. هل أحببت الحوت. الحوت لا يؤذي.

ـ نعم لا يؤذي. أحب الحوت.

الكرش يهتز. والحوت بلا أسنان قضى على كل شيء. وأزال جميع الآثار. الحوت لا يؤذي، خرج يونان من بطن الحوت سالماً.

ـ هل للحوت عينان.

ـ الحوت لا يرى، وضع الله في أنفه موهبة الشم. شم رائحة يونان وابتلعه.

فرك الولد أصابع رجليه، فخرجت رائحة كريهة.

ـ ما هذه الرائحة؟ ما هذه الرائحة؟

الحوت يشم، صرخ الأولاد، وضع الله في أنفه موهبة الشم. شم رائحة يونان وابتلعه. ويونان يشم قال منصور. شم رائحة الله فلفظه

الحوت سالماً. صفقت المعلمة. رسمت على اللوح الأسود صورة حوت وقالت ما هذا؟

- هذا حوت.
- أين يونان ؟
- يونان في السماء.
- والحوت؟
- الحوت لا يزال على الأرض.

- نعم رأيت شجرة.
- أسألك هل رأيت رجلاً ميتاً؟
- نعم رأيت شجرة.

- لماذا تعذبني يا ابني. ادخل إلى الصف. سوف تتمرن. أردت أن أخبرك حتى لا تفاجأ. ادخل إلى الصف أنت وشجرتك.

حمل منصور رأسه ودخل إلى الصف. جلس على المقعد الخلفي. جاء الكرش. نظر منصور إلى أعلى فرأى وجهاً سميناً وصلعة سوداء. تطلع إلى عينيه ثم هرب من الصف.

- نعم رأيت رجلاً ميتاً - الولد يرتجف
- أين رأيته؟

- هناك، يقف أمام اللوح الأسود ويحمل بيده عصا غليظة.

- ارجع إلى الصف يا ولد. الميت لا يقف ولا يحمل شيئاً في يده. الميت ينام، تستطيع أنت وأصحابك حمل رجل ميت. والميت لا يفعل شيئاً. ينام فقط.

ـ هل يحلم؟

ـ أنا أحلم عندما أنام. أحلم بيونان والحوت.

ـ الميت لا يحلم. أنه ميت.

ـ كيف؟

ـ ارجع إلى الصف.

حمل منصور الشجرة، دخل إلى الصف وجلس في المقعد الخلفي. سمع قرقعة عالية.

ـ سوف نقسمكم إلى قسمين ـ قسم الموسيقى يضم الكبار، وقسم بساط الرحمة يضم الصغار. لماذا تجلس في المقعد الخلفي يا ولد؟ تقدم، أنت صغير، وستحمل بساط الرحمة. سأشرح الآن القصة مرة ثانية. الموسيقى تعزف نسميها النوبة. النوبة ضرورية للدفن، عندما يموت الإنسان يصير تراباً فتساعده الموسيقى على دخول السماء. لذلك عليكم أن تعزفوا جيداً. عندما تعزف النوبة فإنها تساعد أهل الفقيد على النسيان.

ـ ينسى الميت حالته عندما يستمع إلى النوبة. من أجل هذا فإن مهمتكم عظيمة. اخرجوا الآن من القاعة وتمرنوا على موسيقى النوبة.

زمامير، طبول، صنوج، آلات من جميع الأنواع والأحجام. خرج الكبار وبقي الصغار. ركض الكبار صوب الآلات الموسيقية وهم يقفزون فرحاً. ركض أحدهم مد يده إلى رأسه انحنى جسمه إلى الأمام، تراجع خطوة إلى الوراء، ثم تقدم. وعلت الموسيقى. حفلة موسيقى. الله يحب الموسيقى. أمرنا الله أن نعزف الموسيقى. هل أمرنا الله أن نعزفها على رأس الميت؟

ـ أمرنا أن نعزفها على رؤوس الناس حتى ينسوا أنهم ماتوا. لا يذكرون

سوى الأيدي الصغيرة التي تدق الطبول والصنوج التي تحملها الأشجار والزمامير التي يعلو نحيبها في الأحياء.

ـ بساط الرحمة أسود. كتبنا عليه اسم الميتم. يشارك الميتم في الحزن. نحن نحزن عندما يموت أي إنسان. لكننا نفرح في الوقت نفسه. نفرح لأن الله يفتح ذراعيه للذين يحبونه.

دوركم يا أطفال هو المشي. احملوا بساط الرحمة وامشوا في الطريق. لذلك يجب أن تمشوا بشكل منتظم. فيدل الناس عليكم بالأصابع ويقولون كم أنتم منتظمون. النظام هو أساس الحياة وأساس الموت. يجب أن يموت الناس بانتظام حتى نستطيع أن نمشي بانتظام في الدفن أليس كذلك؟. طبعاً فهمتم كل شيء. أنتم تفهمون. لكن هناك قضية مهمة. سوف تدخلون غرفة الميت قبل الدفن. تصلُّون قليلاً فوق رأسه. هذا يساعده كثيراً. يخلصه من خطاياه.

ـ نعم نعم. يذهب إلى جهنم. نار لا تنطفىء. ويبقى طوال العمر. وهناك العمر لا ينتهي. كيف؟ بعد ألف، بعد الفين، بعد عشرة آلاف سنة إلا يموت الإنسان؟

ـ أبداً أبداً لا يموت النار تشويه. وضحكت الراهبة. وارتعدت الركب.

مد طفل أصبعه فمد الأطفال أصابعهم وعندما حملوا بساط الرحمة خرج صوت الراهبة مشجعاً. تقدم الليل منهم. يستمع الأطفال ببطء إلى الكرش الضخم الذي يهتز. تقدم الكرش. فتح دُرْج الطاولة. أمسك بيده خرقة سوداء عليها شارة الصليب. وقف الجميع تقدمت الخرقة، مشت على الطاولات المرصوفة ثم توقفت أمام طاولة منصور. صرخ الأطفال جميعاً. وبكى منصور. ثم صرخ بصوت عظيم. واتسعت الخرقة السوداء. جاء

الليل قال الأطفال. علينا أن ننام.

في الغـرفة الفسيحـة الأرجاء، اصـطفت الأسرة قـرب بعضها. لبس الأطفال بيجاماتهم دخل كل بمفرده إلى سريره رسم إشارة الصليب. أغمض عينيه وتقدم الصوت. على يمين الغرفة الفسيحة عقدت الأيقونات اجتماعاً، وعلى يسارها رن جرس الهاتف.

مات أحدهم صرخ الثوب الأسود الطويل.

جاء الفرج. ونام الأطفال.

ـ من أكل الموز؟ كان هناك كيلو موز تركنـاه من أجل زيـارة المطران. تسلل أحدكم وسرقه. من سرق الموز؟ لا تجاوبون. الذي سرق الموز سوف يحمرُّ وجهه (لم يحمرّ وجه أحد من الأطفال) الذي سرق الموز سوف ينزل إلى جهنم (لم ينزل أحد من الأطفال إلى جهنم).

ـ اسمعـوا يـا أولاد الكـلاب. التقـطنـاكم من الشـارع. صلينـا من أجلكم. أنظفكم كل يوم وتسرقون الموز. سيصير الموز غصة في حلق الذي أكله. من سرق الموز؟ اسمعوا يا أولاد جيداً. سأخبركم هذه القصة. مار الياس الحي، قفوا من أجل مار اليـاس (وقف الأطفال) اجلسـوا (جلس الأطفال). مار الياس الحي سوف يأتي في الليل ويخنق الذي أكل الموز.مار الياس قوي. ليس صعلوكاً مثل أبائكم الذين رموكم على الـرصيف. يأتي مار الياس في الليل (يتباطأ صوت الراهبة) لحيته بيضاء مثل الثلج. يتسلل من النافذة يدخل إلى أسرتكم يشم رائحة أفواهكم وأسنانكم. الذي لفمه رائحة الموز سوف يموت. يمسكه مار الياس من رقبته، يشد عليها حتى تخرج روحه. أنتم أحرار. إذا تقدم الذي سرق الموز أمامي الآن فإنه لن يموت.

تقدم أحد الأطفال. هذا هو المجرم صرخت الراهبة.

ـ أنا لا لم آكل الموز. لكن لفمي رائحة تشبه رائحة الموز. أحلم كل ليلة أني آكل الموز. لذلك أخاف إذا جاء مار الياس في الليل أن يخنقني.

ـ ارجع مكانك يا ولد، مار الياس يعرف.

وقف الأطفال أمام المقاعد، تصاعد البخور من فم الكاهن وابتدأ الأطفال يرتلون. ثم تثاءبت لحية الكاهن وارتجفت رؤوس الأطفال.

ـ كنت خائفاً. أنا خائف. جاء الليل. اللحية البيضاء تتقدم. من يقف أمامي؟ نظر منصور إلى النافذة، لم ير الشجرة رأي السواد. فكر أنه سيموت. سأموت الآن. لقد خالفت تعليمات الراهبة. سوف يخرج الموز من أذني. ارتعب منصور وابتدأت يده اليمنى ترتجف. خرجت بلاطات الرصيف من عينيه وابتدأت تغادر إلى شاطىء البحر واللحية البيضاء ترتجف. من يقف هناك؟

تقدم العصفور. أحزانه تنتشر على مساحة الشجرة. خرجت ريشة صفراء وبنت لنفسها عشاً في زاوية شجرة الخرنوب ثم تقدمت باتجاه النافذة، واستدارت حولها. ثم صار اللون الأصفر عنوان جبينه وتقدم.

من شنق العصفور؟ من شنق العصفور؟

لم يجاوب أحد. العصفور في أعلى الشجرة، والشجرة في أعلى الأرض، والأرض لم تشنق العصفور. العصفور شنق الأرض. وبدأت الدائرة تتسع. غنى الأطفال، ركض أحدهم صوب الشجرة حمل غصناً وابتدأ يأكل ثم جاء قطيع الخنازير إلى الضفة ورمى نفسه في البحر. وبكى منصور، أغمض عينيه وبدأت الدائرة البيضاء تتسع.

من يقف هناك؟ صرخ الطفل.

تقدم الثوب الأبيض. الإشارات تملأ جبينه. صلبان، أيقونات، مباخر، أصوات. نظر منصور وارتعشت مفاصلة: الموز. يتقدم نحو رقبته، تمتد يداه وتشدان بقوة. فتح الطفل عينيه. في زاوية الغرفة الفسيحة الأرجاء أيقونة امرأة تحضن ابنها وأمامها شمعة تحترق. غرس رأسه تحت اللحاف، تقدم الثوب الأسود، حمل الموت بيده اليمنى وابتدأ المطر الأسود ينهمر.

تتابع التمارين. سوف تلبسون بنطلوناً كحلياً وقميصاً أبيض. تمشون في صفوف منظمة، تحملون بساط الرحمة وترتلون الألحان الجنائزية. فيدل الناس عليكم بالأصابع ويقولون كم أنتم منتظمون! الكرش يهتز. وصرخات الأطفال تأتي من جميع النواحي.

سوف ندرس التاريخ. ندرس التاريخ لنتعلم الماضي. كما تدرسون الحساب وتتعلمون النجارة، ندرس التاريخ. التاريخ نافذة نفتحها على الماضي.

ـ أين الماضي؟ قال طفل وهو يبكي. أنا أتذكر. كان أبي يبيع البطيخ على عربة متجولة. وأمي تغسل الثياب عند الأكابر وتمسح بيوتهم. مرة جاءت أمي إلى البيت تعبانة وكانت تولول: خبصته سيارة. مات. خمسة أطفال أين أذهب بهم. يلعن أبو الحياة. خمسة أطفال وضعهم في بطني ومات. تدحرجت دواليب العربة أمام بيتنا وتوافد الناس وهم يبكون. ثم جاؤوا وأخذوا والدي. كان مصفوفاً داخل علبة خشبية ولم نشاهد عينيه. مشى الجميع إلى المقبرة وبقيت في البيت. وبدأت الأيام تلد الليالي والليالي

تلد الأحزان. ثم جاءت سيدة إلى بيتنا وقالت لأمي: سوف نأخذ الولد إلى الميتم. بكيت عندما أخذوني في سيارة. وعندما جاء الأستاذ وقص شعري عرفت أني لن أصبح بائعاً للبطيخ. سأصير رجلاً محترماً. لكن أمي لا تزورني كثيراً. أحلمها كل ليلة. وعندما تأتي مع حبات الملبس الملفوفة داخل محرمتها أسألها لماذا لا تأتي كل يوم؟ لكنها لا تجاوب. تقبلني على خدي وتقول هذا الولد يشبه والده. وتذهب.

ـ التاريخ يا ابني ليس الماضي، أي ماض. إنه ماضي الرجال العظام. ليس أخبار بائع البطيخ. إنه أخبار الرجال الذين صنعوا التاريخ. ندرس أخبار الملوك، الملك جورج والقيصر اسكندر والصليبيين. ورجال كبار من بلادنا مثل حبيب بك أبو شهلا ورياض الصلح. هذا هو التاريخ. بائع البطيخ كان رجلاً مسكيناً. دعسته سيارة. ماذا جرى بعد موته؟ هل توقف الناس عن أكل البطيخ؟ إذن لم يصنع التاريخ. التاريخ هو ماضي الرجال العظماء.

في قديم الزمان. (تقدم العشب على جبيني. كانت العصافير المعلقة على رؤوس الشجر تلتهم أحزانها. وعندما حبلت البطيخة الحمراء ولدت ماء أحمر، غسل وجهي. فبكيت على التاريخ، وبكى التاريخ على دموعي. وتقدم الشارع، يتقدم الشارع ولا تتراجع العربة عن أحزانها. والبطيخ يكرج في الصيف على إسفلت بيروت الأحمر).

في قديم الزمان. جاء الصليبيون إلى بلادنا واحتلوها. احتلوا القدس وبنوا فيها مملكة مهمة. بقوا في بلادنا ٩٠ سنة ثم خرجوا. أخرجهم رجل قوي اسمه صلاح الدين الأيوبي. وعندما عادوا بعد الحرب العالمية الأولى عاد فطردهم حبيب بك أبو شهلا ورياض الصلح. وهذا هو عيد الاستقلال.

ـ ولماذا أطلقوا عليهم هذا الاسم؟

ـ لأن الصليب كان شعارهم. لكنهم لم ينفذوا تعاليم المسيح. من أجل ذلك حصلت الحروب الكبيرة. انتصر عليهم العرب. ثم جاء المماليك وانتصروا على العرب. بعد المماليك جاء الأتراك وحكموا بلادنا ٤٠٠ سنة. وعندما انكسر الأتراك في الحرب العالمية الأولى جاء الفرنسيون والإنكليز. أخذ الفرنسيون سوريا ولبنان وأخذ الإنكليز العراق وفلسطين. وسنة ١٩٤٣ غادر الفرنسيون وجاء الخواجات إلى الحكم. هذا هو تاريخنا.

هز الأطفال رؤوسهم إلى أسفل، إلتوت حبات البطيخ على أكتافهم، وتدحرجت على المقاعد الخشبية. وقف بائع البطيخ على الطاولة: عندما كنت أبيع البطيخ كان صوتي يغتسل كل صباح بعيون أولادي الخمسة، وكانت الأرصفة والشوارع تدعوني إلى ملاقاتها، والناس تنظر إلى رؤوس البطيخ وتشتريها. مرة لاحظت زوجتي أن رأسي يشبه رأس البطيخ وسقط رأسي تحت دواليب سيارة الشحن المسرعة.

(كان الملعب يتدفق بالأصوات. عندما ننسى، نلعب بالأخشاب لعبة الحياة، وعندما نتذكر نلعب بالعشب لعبة الموت).

وقف ولد كبير وطلب مني أن أتبعه. تبعته. تقلصت رجلي وهي تمشي، وأحدثت أصابعي صوتاً يشبه صرير باب الكنيسة العتيق. لكننا نلعب. نخترع كل يوم لعبة نلعبها بعد الغداء. شيء جميل أن نأكل أكلاً طيباً، دائماً كانت الأخت بربارة تعد الطعام الطيب ودائماً نأكل ونحن نشكر الله.

بالصف.. صف العسكر طالع يسكر ببحمدون. وقفز على كتفي. وضحك. ضحكنا كلنا. أخذنا المسامير وبدأنا ندق الأخشاب على بعضها. درس النجارة. ثم اخترعنا لعبة جديدة. درس الأكاليل. تأتي الراهبة بالأزهار. نضمها حول بعضها. نشبكها على خشبة. ندور الخشبة أو نجعلها على شكل صليب. نزرع الأزهار. تصير إكليلاً أو صليباً. تمشي

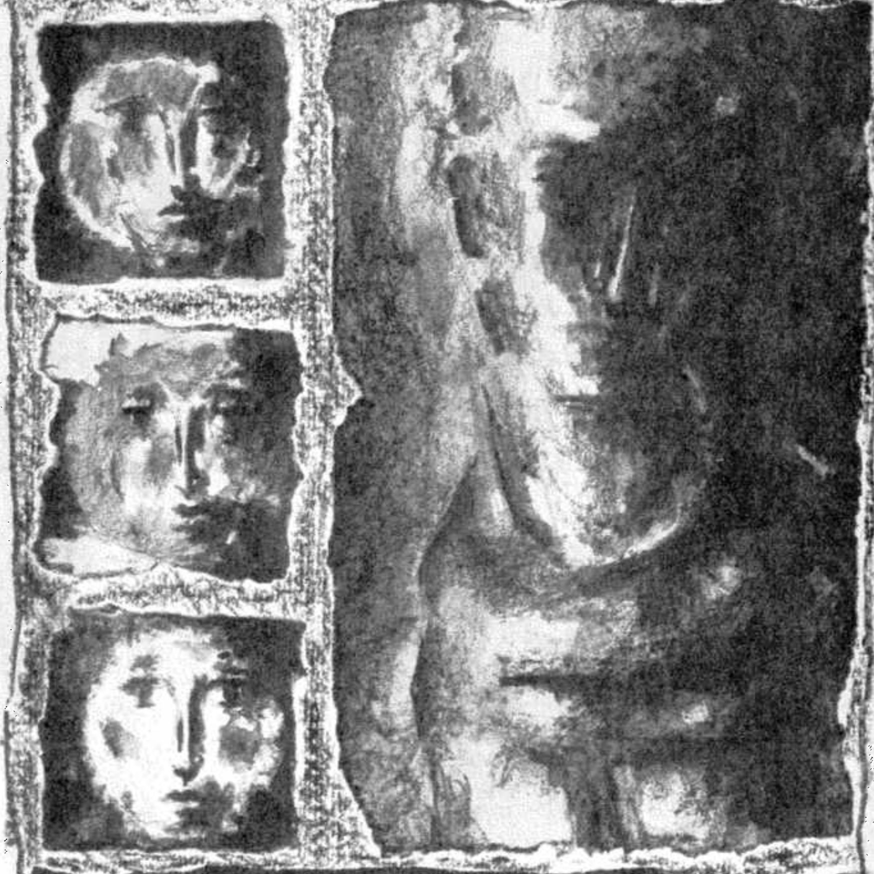
الأزهار في الدفن ويمشي الأطفال وراءها.

ـ لم يكن هناك أطفال في دفن والدي.

ومشى بائع البطيخ إلى المقبرة على قدميه. ثم تدحرجت يـده. وهزت القبر ونامت في الداخل.

تـأتي الشمس وتغسلنا بـالعرق. تعـرق الشمس على أجسـادنا ونلتـذ برائحة النار. نلعب. وعندما فتح منصور فمه كي يمتص العرق اصطبغ فمه بلون الدم.

دخلنا الغرفة الفسيحة. وضـع منصور جسـده في الفراش. رفـع يده ورسم إشارة الصليب. غدا، بعد غد دفن.. سوف نمشي بانتظام. أغمض عينيه. بكى العصفور المعلق في أعـلى الشجرة. أمسـك باللحـاف جيداً. وضع العصفور في زاوية عينه. ونام مار الياس إلى جانبه في السرير.


ونرسم دائرة. الدائرة لا تبدأ ولا تنتهي، ممنوع الدخول لتبقى الدائرة على خاصرتها، ممنوع
الخروج. النقطة لا وجود لها، لكنّ الدائرة تدور. أين تنتهي الدائرة؟
كان غريباً. ولم يكن أحد يعرف سبب حزنه. كانوا كلهم حزانى ولم تكن المسافة بينهم
مشوّهة. كانت المسافة منطقة لا تتداخل ولا تتخبّط الأصوات على قامتها.
كانوا في داخلها يرسمون على وجوههم إشارات سريعة تذوب ولا يبقى منها سوى ارتعاشة صغيرة.

- ٢ -

- اليوم يوم العمل.

كنا نصطف في الملعب، صفـاً متراصـاً. الرأس خلف الـرأس. تقدم الرأس الأول، استدار يساراً فتبعته الرؤوس. فتح البـاب الضيق، دخلت الصفـوف المتراصـة مسطح البـاطـون. تـوقفت. أحنى الأطفـال رؤوسهم للقديسين فانحنت رؤوس القديسين تحية للأطفال. وخـرجت الصلاة من أفواهنا في وقت واحد. تقدم منصور من الأيقونـة ببطء. أخرج من جيبـه كمشـة من الملبس وضعها في فم القـديس. ارتدت حبـات الملبس إلى فم منصور وبدأ يمضغها.

- لماذا لا يأكل القديسون؟
- لا أعرف، وجوههم شاحبة لأنهم لا يأكلون.
- طيب لماذا يعاقبون الموز؟.

- اليوم يوم العمل.

وقفنا بانتظام. وقف الثوب الأسود على منصة عالية. اصطفت عيـون الأطفال نصف دائرة حول المنصة العالية. تحركت العيون. سقـطت عشرة

أهداب وتراجعت ثلاث عيون إلى الوراء. استدار اللون الأخضر فيها كان البؤبؤ الأسود يتقدم. انحنى الثوب إلى اليسار. فانحنى قوس القزح المعلق على شكل نصف دائرة. وبدأت الألوان تلبس ثيابها، تمشط شعرها وتخرج من الدائرة، وتشكل فيما بينها علامة استفهام صغيرة، تنقلب لتصير علامة تعجب، وتتحول عدداً لا يحصى من النقاط.

جلس الثوب على كرسي عتيق، فطلعت رائحة الأعشاب وخرج مسمار من جنبها الأيمن، أصدر أنيناً متواصلاً ثم سقط على الأرض وهـو يلهث. وضع المسمار يده اليمنى تحت رأسه، تقدمت يدي، نزعت الوسادة، حملته ثم أعادته إلى الأرض. نـظرت. تقدمت العيـون إلى الداخـل. فتح بـائع البطيخ فمه وبدأ يغني. خرجت عيناي إلى الأمام جلستا إلى جانب الراهبة. وعندما رأتا عدداً لا يحصى من النقاط، عادتا إلى مكانيهما بسرعة.

ـ اليوم يوم العمل.

كان في الوسط، نقطة التقاطع. انتشر على جميع الجهات. خرج الهواء الساخن المليء برائحة الطعام.

ـ اسمعوا يا أولاد، افتحوا آذانكم جيداً.

فتحنـا آذاننا تقـدمت الأسنان المـائلة إلى الإصفـرار. تقـدمت الشفـة العليـا، تدلت الشفتـان إلى أسفل، ثم عـادت الشفـة العليـا فـانبسـطت وتراجعت إلى الداخـل. خرج الصـوت شبيهاً بصـراخ ثم بدأ يتلون بلون المسمار إلى جانب الكرسي. يتحرك الجبين إلى الأمام، فيلتقي بشامية مرمية وسط الحاجب الأيسر. يتصافحان. يتراجـع الجبين إلى الـوراء جارّاً وراءه الأذنين في حركة جذب سريعة. كانت فجوة العين الزرقاء تغرق أكـثر إلى الأعماق لكنها وقفت عند لقائها بعلامة التعجب. وانتصب الهواء مسرعاً.

ـ لن تدخلوا إلى الصفوف اليوم. لن ندرس اليـوم. اليوم عيـد. نعم

اليـوم عيد. لكنـه عيد في السـماء وليس على الأرض. قسم المـوسيقى مع الأستاذ، وبساط الرحمة معي.

ـ لماذا الراهبات سمينات؟

ـ لا أعرف.

اهتز الكرسي يميناً وشمالاً، وبدأت حركة نقطة التقـاطع تـأخذ وتيـرة متسارعة، والثوب يهتز صعوداً ونزولاً. غرق الكرسي فجاء الصياد وانتشله. وقف الثوب الأسود. وقفنا وفهمنا.

ترتيبات العمل جاهزة بشكل كامل. اذهبـوا الآن إلى غرفكم البسـوا ثياب العمل. وارجعوا إلى الملعب.

ركضنا. دخل البنـطلون الكحلي في أرجلهم بسـرعة وأعـطى عيونهم رائحة السماء. ثم جاء القميص الأبيض النظيف، الجميل، دخل أذرعهم واستقـر في مكانـه المحدد بـانتظام. وفـاحت رائحة المستقبـل عـلى رؤوس أصابعهم.

تقدمنا.

صفـين متوازيـين، يخترقـان الشارع. كـان الإسفلت حاراً، وأحـذية الأطفال ترسم على جبينه ألوان الفرح. العمل.

ـ منذ زمن لم نعمل.

ـ العمل يسلي أجابني. منذ زمن لم نخرج إلى الشارع.

تقدمت حيطان الميتم ودخلت في عيني. تقدمت نحوهـا. حملت ثيابي على أكتافها وفتحت النافذة.

ـ سوف ينظر الناس إلينا ويقولون كم هم منظمون. ومشت الأرصفة

بمحاذاتهم دون أن تحدث ضجيجاً.

ـ وصلنا. انتبهوا،

الناس على شرفات المنزل. وأمام البناية، تجمعت الأزهار، لوت رؤوسها، وأسندت كل زهرة رأسها على صدر زهرة أخرى. مجموعة الموسيقى تتقدم، توقفت أمام الرصيف المقابل. وكانت شجرة كبيرة تحمل في رقبتها طبلاً كبيراً يدق بشكل إيقاعي. جاءت عشر فراشات وطارت حول عينيها ثم بدأت تموت.. وبكى أولاد القرية لأن الفراشة تموت. خرجت امرأة على الشرفة وبدأت تولول ثم قالت: كان إلى جانبي لحظة الوداع. وضع يده على رأسه وطلب مني أن أعد له فنجان شاي. ذهبت إلى المطبخ أعددت الشاي. وعندما رجعت كان جالساً على الكرسي الهزاز، يده اليمنى تسند جبينه والكرسي تسند يده اليمنى ورأسه متدل إلى أسفل. اقتربت منه. وصرخت. جاءت زوجته وأولاده وبكوا حوله راح يا حبيبي راح. جاء رجل طويل. أمسك المرأة من يدها وأعادها إلى البيت.

راح الأطفال من الميتم. حملت الراهبة تحت إبطها مجموعة من الأقمشة السوداء، عليها اسم الميتم وتقدم الموكب. بدأنا نتسلق الدرج.

يجب أن لا يبتسم أحد قالت الراهبة.

عبس الأطفال. ابتسم أحدهم ثم عبس. وتقدم الموكب، وأصوات النساء تأتي إلى آذاننا.

ـ لماذا يبكي الناس عندما يموت الإنسان؟

ـ الموت راحة دخل الكاهن وهو يتمتم. الخطوط البيضاء ترقص في لحيته. نظرت إلى وجهه وابتدأت رجلي تخبط على الأرض على ايقاع الطبل المعلق في أعلى الشجرة وكان الشعر الأبيض يتبع إيقاع الطبل.

ـ لا تحزنوا مثل باقي الناس الذين لا رجاء لهم.

دخلنا باب الدار. جمع غفير. رجال من مختلف الأعمار حلقات حلقات. كل يشعل سيجارة في يده اليمنى ويحمل محرمة في يده اليسرى يستعملها لتجفيف العرق المتصبب من جبينه.

العوض بسلامتكم.

الله يسلمك. تقدمنا. اخترقنا الصفوف والحلقات. دخلنا غرفة واسعة مليئة بالثياب السوداء. ابتعدت النساء. تقدمنا. كان السرير عريضاً وفي وسطه نام الرجل. وضع يديه فوق بعضهما على صدره، لبس حذاء جديداً لماعاً، أغمض عينيه ونام. لا بد وأنه مريض،فكر منصور. لأنه وضع في فتحتي أنفه قطعاً من القطن المائل إلى الاصفرار. جاءت امرأة تربط على رأسها شريطاً أسود. فتحت قنينة عطر وبدأت ترش على جانبي السرير. سقط كثير من العطر على وجه الرجل وعلى بذلته. لكنه لم ينهض.

- انهض يا أبو الشباب وسلم على الشباب اللذين جاؤوا لوداعك.

لم ينهض الرجل وبقيت عيناه مغلقتين. بدأ العرق يتساقط على جبيني. مددت رأسي. نظرت إلى جبين الرجل النائم. لم يكن العرق يتساقط على جبينه، كيف يستطيع هذا الرجل احتمال هذا الحر الشديد دون أن يعرق؟ بدأنا نرتل. دخلت ذبابة سماء الغرفة. حطت على فم الرجل المغلق، لكن الرجل لم يرفع يده ليزيل الذبابة. قامت الراهبة ورفعت يدها، لوحتها قليلاً فطارت الذبابة وحطت على طرف السرير. ونحن نرتل. توقفنا. ارتفعت أصواتنا بالصلاة. أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك. . وجلس الرجل على الكرسي. نسي بعض أغراضه معلقة على مشجب الحمّام. حاول أن ينهض. فتح عينيه ثم بدأ يموت. لكنه لم يتذكر شيئاً. كان يعتقد أنه سوف يتذكر جميع مراحل حياته، لحظة يداهمه الموت. هكذا قرأ في الكتب. حاول أن يتذكر طفولته. فجاء الموت الطويل ولف عينيه، سقط

رأسه قليلاً إلى الأمام. فسقطت يده على الكرسي الهزاز وسقط الكرسي على محوره. كما في السماء كذلك على الأرض.

خرجنا بانتظام ودخل الكهنة بانتظام ثم جاء الصندوق الخشبي وانتشرت رائحة البخور الممتزجة برائحة العطور. تصاعد صوت الموسيقى إلى أعلى فأعلى ومشى الجميع وراء الخشبة.

فتحت الراهبة بساط الرحمة. حملناه أربعة. أربعة رؤوس تقف على أربع زوايا. ثم فتحت بساطاً ثانياً وفرشت الأرض. وخرج الماء على الناس مثل نهر نسي منبعه لكنه يعرف مصبه ومشينا.

تقدمت حبات الماء صفوفاً صفوفاً. والحبة تلتفت لتتحدث مع الحبة الأخرى والصوت منخفض ولا نسمع سوى صوت موسيقى الهدير. وبساط الرحمة يلف فنجان الشاي. والناس نيام.

ماذا فعلت يا ولد. هل تخاف؟

ـ أبداً، لا أخاف أبداً.

ـ لكنك بللت بنطلونك. لقد بال على نفسه من شدة الخوف. امش أمامنا، زعقت الراهبة. سوف أكسرك في الميتم.

تدلت أيادي الأطفال إلى أسفل. وبدأت تعلو وتهبط. انفتحت فجوة في عيني ورأيت الأسماء تخرج من أفواهنا. أمسكت السكين وبدأت أحفر على الإسفلت اسم الشجرة الكبيرة. فتجمعت الثمار وتخاصرت وبدأت تتقدم على شكل صليب وطوقتني.

أمسكني الثوب الأسود. جلب قضيب الخيزران وبدأ يكتب على رجلي خطوطاً حمراء تتوازى تتقاطع. ثم صفعني على وجهي وصرخ: في المرة القادمة سوف أكسر عظمك.

دخلت إلى الحمام وبدأت اغتسل، وفكرت كيف أن التفاحة مدورة، ورأسي مدور. وكيف حمل بائع البطيخ بطيخة على رأسه فظنها الناس رأسه. وبدأ الماء ينزلق على جسمي. سوف أنام بلا عشاء. هذا هو القصاص.

- سوف أتعشى.
- كيف؟
- أسرق الموز.
- لكن مار الياس سوف يخنقك. .

دخلنا غرفة النوم.

- أنا خائف.
- لا تخف.
- ربما سيشعر الأستاذ أننا لم نذهب معهم في النزهة.
- أية نزهة؟

نخرج في الصف الثنائي. نتمشى على الأرصفة بانتظام. ممنوع الكلام. مرة رآني ألعب قرب عليقة شوك. سألني: إلى أين أنت ذاهب؟

- نحن نتمشى.
- تعال وتحدث معي.

وعندما يصاب العصفور ينهمر دمه مثل حبة قمح ثم يفرد جناحيه

ويسقط على الأرض. وبدأت العليقة في رأسي.

ـ لكن شعرك لا يساعد قالت العليقة.

حتى تـأتي العصافـير يجب أن ينمو الشـوك. وانحنى رأسي إلى الأرض ليلتقط حبة قمح. فـانحنت الحبة وبـدأت تبكي. مشيت نحوهـا. انحنى ظهري إلى الأمام. ونبت القمح على جبيني.

ـ لكن شعرك لا يساعدك.

ـ لماذا وجهك أصفر يا ولد؟.

بدأ وجهي يأخذ شكلاً جديداً. امتد نحو عليقة الشوك وتشابك معها.

ـ لكن شعرك لا يساعد.

نما الرصاص على شعري.

ـ يبدو أنك لا تصلح أن تكون ابن ميتم يا ولد.

أخـذ العصفور، وبـدأ ينتف ريشه. كـانت الريشـة تخرج من جسـد العصفور وهي تتقوس ثم تعانق الهواء وترقص على إيقاع الرصاص. تسقط على الأرض محدثة صوت سقوط ريش العصافير على الأرض. وعندما أشعل النار في الغابة، وبدأ العصفور يذوب، جاء الموت فركض الأطفال نحوه. وداس الموت رأس العصفور. فحملنا الريشة إلى الغابة.

تقـدم مني. وصفعني عـلى وجهي. امش بـالصف يـا ولـد. وجهـك أصفر. مشيت بالصف. وبقي الصف يمشي وأنا واقف مكاني.

دائرة.

جلسنا القرفصاء. وقف الكرش في الدائرة. سوف نلعب لعبة جديدة.

التلفون المكسور. لعبة جميلة وتتطلب ذكاء. سوف أوشوش في أذنك كلمة ونظر إلى يساره، تقوم أنت وتوشوشها في أذن رفيقك، حتى تعود أنت ونظر إلى يمينه وتوشوشها في أذني. ونرى. مفهوم؟ مفهوم. نبدأ.

بصل أحمر. بصل أحمر. بصل أحرم. بصل محرم. بصال محرم. بصال محرم. بسال محرم. بسال مرحمة. بساط رحممة. بساط رحمة. بساط رحمة. وبدأنا نضحك. كيف يتحول البصل الأحمر إلى بساط رحمة قال الكرش، كما تتحول الشمس إلى ميتم قال العصفور، كما يتحول الرصاص إلى قمح قال الأطفال، وضحكنا.

ـ بالصف الثنائي. مشينا. شبكت يدي بيد زميلي، أعطيته اليمنى وأعطاني يده اليسرى. تحدثوا بصوت منخفض. انخفضت أصواتنا ثم سكتنا.

كانت في رأس الشارع تجر وراءها ولداً. تقدمنا، تقدمت، عندما مات الرجل، كانت الرائحة تشبه رائحة الزيتون المتعفن. تقدمت. وضع الولد يده على رأسه. كان شعره أشقر اللون.

ـ ما هو لون شعرك؟
ـ شعري أسود.

(لكن الغبار لا لون له).

نظر إلينا. فتح عينيه. توقف. صرخت فيه المرأة أمش يا ولد.

ـ أريد أن أقص شعري مثلهم.
ـ امش إلى البيت.

بدأ الولد يبكي. ارتفع صراخه. لا بد وأن المرأة سوف تموت فكر الأطفال. سأدق الطبل عندما تموت اهتزت الشجرة.

ـ لا تضع يدك على قفاك. كلما خرجنا من الميتم أوجه لك هذه الملاحظة.

ضربت المرأة الولد على قفاه. امش إلى البيت. تقدم الصف الثنائي. وبقي الولد يتعارك مع السيدة. والسيدة تحاول إقناعه. ونحن نشم رائحة العصفور.

ـ العمل أهم من الدرس. على الأقل تدرسون النجارة وتتعلمون. بعرق جبينك تأكل خبزك.

دخلنا غرفة النوم.

ـ ماذا نلعب؟
ـ التلفون المكسور.
ـ لعبة قديمة. نلعب لعبة جديدة.

تمدد منصور على فراشه. هذا هو الميت قال الأطفال.

ـ أنا كاهن.
ـ أنا والد الميت.
ـ أنا الراهبة.
ـ أنا الناس.
ـ أين الأيتام، قال منصور؟
ـ نلعبها بدون أيتام.
ـ مستحيل.

لم يقتنع منصور بالحجج كلها. فرطت اللعبة. حريقة حريقة. وافق منصور رغم أنه لم يقتنع. كل الأطفال وافقوا دون أن يقتنعوا. نلعبها حتى نتسلى. أغمض منصور عينيه. وضع يديه فوق بعضهما على صدره. جاءت

أمه ووضعت القطن الأبيض في فتحتي أنفه. جاء الحلاق وابتدأ يحلق له ذقنه.

ـ لكنك لم تكسر زلعومي. تقدم الحلاق وكسر زلعومه.

أوجعتني قال منصور. جاء والده ورش العطور على وجهه وثيابه تأوه منصور قليلاً. ابتدأ الناس يندبون الميت. وقفت الراهبة كالصنم أمام الجثة.

ـ يا أبو الشباب. يا حبيب الشباب. انهض وتكلم مع الشباب الذين جاؤوا لوداعك.

فتح منصور عينيه، فرأى الشباب الذين جاؤوا لوداعه. حزن منصور. جاء الشباب لوداعي وأنا مسافر باكراً. رفع رأسه وأسند ظهره إلى الحائط.

ـ كيف ترفع رأسك يا منصور؟ المفروض أنك ميت؟! الميت لا يرفع رأسه الميت مات.

ـ لكن الشباب جاؤوا لوداعي.

ـ يودعونك وحدهم.

رمت الورقة من النافذة. نحفر حفرة في الأرض. نضع الجثة فيها ونهيل عليها التراب. يأكل الدُّود جسد الإنسان. عندما يموت الإنسان يصير تراباً أسمر.

ـ عندما يموت الإنسان يتفتت، تصبح رائحة الجسد مثل رائحة الزعتر ويدخل الحزن إلى المدينة يبني الحزن بيتاً صغيراً. ينام الأطفال في البيت الصغير. يحلم الرجل أنه أصبح طفلاً. لكنه عندما يموت، يصير أعشاباً ملونة. تفوح رائحته في أحشاء الأزهار البرية.

مال رأسي إلى اليمين وبدأ يروي حكاية الجسد الذي صار شجرة نخيل وكيف جاءت الصحراء وارتمت أمام شجرة النخيل. وكان جسد الصحراء يطلب فيئاً، ووجهها يتشقق من رائحة الشمس.

نام منصور في السرير ونسي لماذا تتجمع الغابات قرب خط الاستواء. رفع إصبعه وسأل الأطفال لماذا تتجمع الغابات قرب خط الاستواء؟ لم يجب الأطفال. تقدمت الظلمة.

ـ فلنضيء الكهرباء.

ـ كلا عندما يموت الإنسان لا نضيء الكهرباء في غرفته. نضيء شمعتين. شمعة خلف رأسه وشمعة أمام رجليه.

رتل الكاهن ترانيم الموت. تقدم منصور. عانق الميت خيال الشجرة. وارتجفت أصابع العصفور أمام الغابة. بكى الأطفال. هرب أحدهم واختبأ تحت السرير. جاء الدود وغطى جبينه. ورفع الجميع أصابعهم. تحترق الأصابع ومنصور لا يزال ميتاً.

سكوت سكوت.

ضرب ثلاث دقات عنيفة على الخشبة. وأطفئت الأنوار. حمل الأطفال بساط الرحمة. فابتدأ البساط يرتجف.

وعندما خرج الطفل من بطن أمه، كان يرتجف. فحمله الطبيب. لفه بمنشفة عتيقة ووضعه على مدخل الثدي. وكان الطفل يرتجف. ترنح رأسه، فنبت على رأسه صوت تشقق الباطون. ارتجف الأطفال. فتح منصور عينيه.

ـ الميت لا شيء نحن لا نخاف من الميت.

ـ الميت لا شيء لكننا نخاف من الميت.

وقف منصور. نزع القطن من أنفه وأضاء الكهرباء.

ـ كنت تحت السرير المقابل. لم أكن خائفاً. كنت أرتجف. أنا. أنا لا أخاف من الميت أبداً.

فتحت فماً وأغلقته. رسمت سهماً كبيراً على حائط الحمّام. انكسر السهم إلى نصفين وهوى على وجهه في محاذاة بلاط الغرفة. وأفاق الأطفال على صوت الجرس. اجتمعوا في الملعب. وبدأوا في قراءة كتاب. جاءت صحون التنك. وضعت فوقها الأوراق المرقطة باللون الأسود. امتدت الأيدي ببطء إلى الأوراق وابتدأ اللون الأسود يلون الشفاه الحمراء. تقدم منصور وقبل يد الميت. كانت باردة. لكنها نظيفة وعليك أن تقبلها. انطبعت علامتان تشبهان السهم المكسور على يد الميت. قام وزرع حديقة الكنيسة فانتصبت شجرة أوراقها خضراء. عندما قطفت ورقة من أغصانها، مزقتها وأنا أراجع دروسي. فصار لون يدي أسود. وأغمض عينيه. فرأى الدائرة البيضاء تصير سوداء، ونام.

أخرجوا. خرجنا. رفعنا الزينة في الملعب. وجاءت الراهبة بصورة الخواجة مراد مؤسس الميتم. حمل الخواجة مراد عصا غليظة بيده اليمنى وبدأ يضرب يميناً وشمالاً.

ـ من يضرب الخواجة مراد؟.

ـ يضرب اللصوص.

ـ ولماذا يضرب الخواجة مراد اللصوص؟

ـ لأنهم حاولوا أن يسرقوا أموال المدبغة التي بناها الخواجة مراد بعرق جبينه.

غرقت الصورة في عرق جبين الخواجة مراد، فكر الأطفال. وخرجت رائحة الجلود الممزوجة برائحة عرق الجبين. كانت الرائحة كريهة. لا بد وأن تكون هذه رائحة اللصوص. حزن الأطفال على الخواجة مراد الذي يمتزج تعبه بعرق اللصوص.

ـ وهل مات الخواجة مراد؟

ـ كلنا أموات يا أولادي.

ـ اعترف بذنبك يا ابني، كرسي الاعتراف هو مواجهة الله. هل تكذب؟ هل تسرق؟ هل؟ هل؟ نعم نعم. ركع أمام كرسي الاعتراف. سمع الأطفال وصية الكاهن واعترفوا أنهم كذبوا على الله.

وانطلقت الزمامير على مساحة الطرقات. وأيام العمل لا تنتهي. والأطفال يلعبون كل يوم ويدخلون الكنيسة كل يوم بخشوع. وقرر الأطفال أن الحجارة كائنات معادية لأنها تستعمل عادة كي ترمى في الأبار التي يشرب منها الناس.

وفي كل مساء نعيد عليكم رواية القصة. والقصة لا تنتهي. أضاء الصفحة المقابلة. تموت القصة فجأة. تترنح قليلاً. لا تتثاءب. تموت القصة فجأة. كما مات والدي.

دَخَلَ جَبيني. وَ فتحَ أمامي زقاقٌ طويل. وَدَخلنا جميعًا. دائمًا نعتقد أنَّ الجديد سيكون
مَعْزولًا وأنَّ القصة سوف تكتب عن أحزانه وآلمه وسط الغابة. لم يكن الجديد حزينًا
الحُزن ليـــس حالة. الحُزن موقفـــا.









الموضوع لديهم. يصمت الموضوع ويتكلم الشيء الذي يموتـــا
ليـــس المهم أن تفهم. المهم أن تموتـــا

- ٣ -

ورسم دائرة.

ـ أين تبدأ الدائرة وأين تنتهي؟

ـ الدائرة لا تبدأ ولا تنتهي. الدائرة تدور. الدائرة مدورة. ممنوع الدخول كتبت الدائرة على خاصرتها، ممنوع الخروج. الأرض دائرة. تدور حول الشمس، يدور القمر حول الأرض. والأرض تدور حول نفسها.

ـ أين تنتهي الدائرة؟

ـ النقطة لا وجود لها، لأن الدائرة تدور.

كانوا دائرة. والدائرة تدور.

ـ لكننا لا نشعر أنها تدور.

ـ لا تشعر أنها تدور، لأنك تدور معها. تدور الأرض بك وأنت واقف عليها. لذلك تشعر أنها لا تتحرك وأنك لا تتحرك. لكنها تدور.

جلب ليمونة، وضعها أمام لمبة كهربائية وقف الرجل على الليمونة. ابتدأت الليمونة تدور، وابتدأ الشيب يغزو رأس الرجل الواقف على الليمونة. انتهى الدرس. أخذ سكيناً، قشر الليمونة وأكلها.

خرجت إلى الشارع، مشيت. على اليمين كانت الطريق عريضة وعلى جانبيها ينبت العشب والشوك. مشيت إلى اليسار. تراجعت الطريق وبدأت تتشكل تضيق، تنقطع. كان عليه أن يذهب إلى نهاية الطريق، يشتري خبزاً ويعود. مشى الصبي، كان بنطلونه الكحلي القصير واسعاً قليلاً. لذلك كانت حركة قدميه تتراجع أمام حركة البنطلون. مشى. كان يحمل في يده فوطة بيضاء. من المؤكد أنها كانت مطوية قبل أن يخرج إلى الشارع، لكنها الآن تتحرك باتجاه البثور المنثورة على رجليه وتحت ركبته اليسرى. لم يكن ينظر. كان يفكر بعرنوس الذرة. أمسك العرنوس بيده اليسرى وبدأ يلتهمه. فكر أنه يستطيع أن يأكله حبة حبة. وضع الفوطة البيضاء تحت إبطه، وبدأ يأخذ حبات الذرة حبة حبة. يضع الحبة في فمه ويبدأ في مضغها. انقضى الأسبوعان فكر الصبي. غداً سوف نرجع إلى بيروت.

وكان رأس الرجل يزداد بياضاً فيما هو يأكل الليمونة بدأت خطواتي تتراجع. انهار صوته تحت قدمي، فبدأت أسمع صوتاً غائماً يحمل في أصابعه أصوات الذين لا أحبهم والروائح الكريهة. سوف أشتري خبزاً. أحنى رأسه وتقوس جسمه باتجاه اليمين. جلس على حافة الشارع. يمر الناس متمهلين، وينظرون إليه بغير فضول. وفي يده اليسرى كان عرنوس الذرة. وكان يأكله حبة حبة. قرع الباب

ـ أريد خبزاً.

ـ تفضل.

دخلت.

رائحة الخبز تملأ المكان. رائحة طيبة. أخذت بيدها العجينة وبدأت تلوح بها في الفضاء. اعتقدتها منديلاً مائلاً قليلاً إلى الاصفرار. لكنها عجينة وسوف تصير خبزاً. يبدأ الرغيف رحلته على الصاج، يتغير لونه، ثم يتحول

إلى جلدة رقيقة تغطي الحديدة السوداء. ترتفع يد المرأة وتعطيك رغيفاً إذا كنت جائعاً. تكدسها فوق بعضها ثم تربطها بالفوطة البيضاء. وتعطيك إياها. حمل الصبي الخبز وضعه على كتفه. دفع الدراهم وخرج إلى الشارع الضيق. أريد أن أدخن. لكن ليس معه سيجارة وهنا لا يستطيع أن يشتري سيجارة. عليه أن يشتري علبة كبيرة. وهو لا يحمل في جيبه سوى ربع ليرة. استدارت الطريق. حمل الأرغفة في يده اليمنى وبدأ يحرك يده اليسرى في الهواء. قالت له المرأة أن خبزها مصنوع من طحين القمح الصافي. مشى إلى الأمام. يتألف الأسبوع من سبعة أيام، ينقسم اليوم إلى ليل ونهار. يحمل الليل عصاه ويهرول في الشوارع. أغمض عينيه، انهض. جاء الصباح. كان يرتجف. وعلى عينيه حطت الدهشة. وجاء هواء الصباح البارد يزيل عن جسده رائحة الليل. ولكن كيف؟ كل يوم ننام وننهض ونذهب إلى الصف. هجم على الليل وابتدأ يحكي له حكاية صغيرة. لكن الليل هرب وجلس في عينيه وأفاق الصبي في الصباح وعلى فمه طعم فاكهة غير ناضجة. طوق وجهي شعور حزين. كنت أعرف أننا سنرجع إلى بيروت لكنني لا أعرف لماذا تمر الأيام بسرعة حول الليل. رفع الخبز ووضعه على كتفه. توقف. ركض قليلاً. توقف ثانية. تقلصت الطريق وتحولت نقطة واحدة يقف عليها الصبي.

ولم تعد هناك مسافة. ابتسمت شفتاه، تحركت رجله إلى الأمام، لكنه بقي واقفاً حول النقطة وابتدأ يفكر في الخبز وفي ملامح وجه المرأة. وبقيت النقطة تميل إلى اليمين وإلى اليسار وهو لا يتحرك من مكانه. انهارت الطريق وبدأ الإسفلت يصير غباراً. نظر خلفه فرأى المرأة تستدير. ورأيته يمشي على الذكريات التي تتكسر تحت قدميه الصغيرتين. نظر إلى يده التي تحمل الخبز. ثم رفعها على كتفه. وقف جامداً. حمل الأسابيع والأيام بين يديه. مد يده إلى الفوطة البيضاء أخذ لقمة من الرغيف وابتدأ يأكل. وركض عائداً إلى

البيت. وعلى طول الطريق كان البيت ينتظر وكنت أركض. وصممت أن أصل بسرعة. ولم يكن يسمع سوى وقع خطواته على الأرض.

ورسم دائرة.

وفي الدائرة اجتمع الأطفال. نقطة خلف نقطة. وابتدأت الدائرة تدور. تدور الدائرة في اتجاه واحد فكر الأطفال وهم يأكلون فطور الصباح. أسرعت الدائرة. وابتدأت رؤوسنا تشكل خيطاً واحداً ولم نعد نسمع سوى صوت الحركة. توقفت الرؤية وابتدأ صوت الحركة ينفجر وحده. تجمع أغراضك في حقيبة واحدة وتخرج من الدائرة. ترميك الدائرة بعيداً. وعندما تفتح حقيبتك تكتشف أن أغراضك ليست مرتبة بما فيه الكفاية (منطق الحركة).

بيروت.

كان تمثال الشهداء يقف وسط الساحة محاطاً ببعض الأعشاب المقطوعة الرؤوس، ولم تكن الدماء هناك. تتحرك رؤوس الناس في جميع الاتجاهات، رؤوس كبيرة ورؤوس صغيرة. وأصوات الباعة تخترق جدار حقيبتي فتتجمع الأغراض حول بعضها هرباً من الصراخ. زمامير، زمامير. وأصوات الباصات التي تهدر مثل النساء اللواتي يمشين على رؤوس أصابعهن. ساعات، قداحات، فساتين، عطور. يقف بائع الجرائد أمام بسطته وينتفخ صدره لأن المانشيت الأحمر كان كبيراً اليوم وسوف يجلب الكثير من الزبائن. والحركة تتابع في كل شيء. وأمام ساحة العبد يتجمع الحمالون وهم يتأسفون لأن الساعة نقلت إلى منطقة نهر بيروت. وكل يوم، يعيد علي الحاج نفس القصة عن السيد ميشال العبد الذي بنى الساعة بعرق جبينه وكيف تم نقلها من مكانها لأن ميشال العبد مات. ولا كرامة للأموات في بلادنا.

من ساحة الدباس إلى ساحة الشهداء، يمشي حذائي وحيداً وقد تبلل بالمطر، لكنه لا يشتكي أو يتذمر. ويقف الناس في وسط الشارع والسيارات

لا تستطيع المرور. والعرق يتصبب على جبين الجميع.

بيروت.

تعاني ضواحي بيروت الشرقية أزمة سكن. حمل الناس أمتعتهم ونساءهم وأتوا إلى بيروت. وابتدأ صوت الآلات يرتفع. نساء باللباس الطويل ثم القصير مكشوفات الرؤوس. يمتلىء الباص دائماً بالركاب والناس تتدافع أمامه. يقف فريد الأطرش على مفترق الشارع الكبير المؤدي إلى عدد لا يحصى من الشوارع الصغيرة وهو يدعو الناس إلى حضور أفلامه القديمة التي يغني فيها عن حكاية غرامه الطويلة. ويقف طفل على المساحة الممتدة بين شفته العليا وأنفه ليكتب كتابات بذيئة على الصورة. وإلى جانب الأوتستراد الكبير يقع التنك. وعندما سألت صديقي عن لون التنك المائل قليلاً إلى السواد، قال أنه لون الذباب الذي يتكدس من شدة الحر في الصيف.

في الصباح الباكر، تمتلىء الشوارع بالرؤوس المتجهة إلى العمل. تفتح العيون نورها إلى أقصى الحدود الممكنة حتى تستطيع أن ترى وتميز في الظلام الصباحي الخفيف الذي يشبه رائحة الباذنجان المقلي. ينغرس صوتي وسط الرؤوس فلا أعود أسمع سوى أنين الآلات التي تعمل أربعاً وعشرين ساعة على أربع وعشرين ساعة. والنوم هو فترة موت قصيرة بانتظار الراحة التي تحدثنا عنها الكتب السماوية.

ـ عليك أن تحني رأسك لا مؤاخذة.

أحنى رأسه: دخل رأسه أولاً ثم كتفاه. تقدمت القدمان بعد الكتفين واستقام واقفاً كالألف. لا تدخل الشمس إلى هنا. جاؤوا إلى الشمس ووضعوها في قفص فابتدأت تتكسر. ثم ابتعدت واستقرت في طريق سيرها العادي.

والشمس تطيع. لا تستطيع الشمس أن تأمر أحداً. لأنهم اعتقلوا الشمس احنيت رأسي ولم أنظر إلى عينيها حيث يتجمع الدم كالجمر الأحمر في مؤخرة عيوننا.

بيروت

يأتي البحر، يدخل في صوتي. سبعة ألوان في سبعة أيام هو البحر. تتداخل الأمواج قرب رمال الشاطىء. جاء الصبي وقف أمام رمال الشاطىء واستراح (صورة كلاسيكية) لكنه جاء. مشى على الرمال. أخذ كمشة من الرمال ورماها في البحر. جلس واستراح. سبعة ألوان في سبعة أيام هو البحر. يدخل البحر على المدينة مثل فرس همجي. تأتي المدينة، تركض أمام أطرافه، وتصلي. يبني البحر حدوده، ويصير طائراً برياً بغير أجنحة. وعندما جاءت المدينة التي لها سبعة أفواه وبدأت ترمي أوساخها على وجه البحر، وبدأ البحارة القدماء يتقيأون رائحة الخمور الغريبة، انطفأ البحر، صار داجناً كقطة.

حمل البحر على رأسه تاجاً قديماً. ركبت سفينة صيد ممزقة الجسد. حملت عدتي ودخلت أحشاءه. صيداً سميناً كان، وكالصيد السمين بكى أمام مدية الجزار.

ينبع نهر البحر من مسام الجسد المترامي في باطن الأرض. هكذا تقول القصة القديمة. نهر البحر لا ينبع ولا يصب، يقف مكانه خشبة تتماوج فيها بقايا النسغ والأطراف الممزقة.

يأتي البحر. تتثاءب بيروت وتحمل على خصرها سبعة بيوت. والبيوت تضيق. حمل التابوت على كتفه وكانوا أربعة إلى جانبه يمدون أذرعهم. ومشى بخطى متمهلة على إيقاع الطبل. لم يبك. كان يحمل التابوت. لا وقت الآن للبكاء. سوف أبكي عندما أرجع إلى البيت. حمل الطريق وكانت

تتلوى بين يديه. مد قبضته إلى رأسها، لا رأس لها. وابتدأ يبكي ولكن بعد فوات الوقت.

ـ حاول أن تتذكر.

وقف. جاءت ذاكرته. وقفت على يديه. تذكري. ابتسمت دخلت في عينيها ألوان تتمدد كالأصابع. تذكري. قفزت عن يدي وبدأت تركض. ركض وراءها.

حملت كرسياً وتابعت الركض. بدأ يلهث، نزل العرق على جبينه ووجهه وصار لأنفه رائحة جديدة. وضعت الكرسي على الأرض. تقدم نحوه. جلس على الكرسي وهو يلهث.

ـ تذكري. ضحكت ضحكة خفيفة ورفعت حاجبيها إلى أعلى لتقول لا. يجب أن تتذكر. فكر الرجل. وظيفة الذاكرة أن تتذكر. هذا عملها. من الصباح إلى المساء، لا أطلب منها شيئاً سوى أن تتذكر الأمور الصغيرة. نظرت ذاكرته إلى عينيه. فرأت الهلع يرتسم فاتحاً فمه. لكنها لا تستطيع أن تتذكر. وهربت تاركة وراءها صوت احتكاك قدميها برمال الشاطىء

المدينة امرأة. هكذا يكتب الأدباء والشعراء. المدينة مدينة فكر الرجل الواقف على رمال الشاطىء. حجارة، شوارع، نساء، رجال، بغايا، أطفال. المدينة علبة تنك صغيرة فكر الذين يشربون من مياه الأزقة المعتمة. حشرونا فيها على حافة الزاوية.

المدينة لافتة عليها نكتب أسماء الموتى الذين رحلوا. المدينة طبقات

والطبقات مدن. لكل مدينة باب أو عدة أبواب. وأنا أبحث عن المفتاح على الشواطىء المعتمة.

وخرجت المدينة. أغلقت الباب على نفسها وبدأت أسمع صوت الانفجار.

وعلى الباب، كان البحر صغيراً بحجم ورقة دفتر كبيرة. لكنها ورقة إطارها أسود.

ينعون من؟ ـ عندما أموت سوف يعتقلني الإطار الأسود. لكنه على باب المدينة وعليه كتابة مبهمة.

ـ من يرسم صورته على وجه الورقة؟

لم يجب أحد على سؤال الرجل الواقف أمامي. ومشى بخطى متثاقلة صوب البحر وابتدأت أسنانه تتلون بالسواد.

عدت في المساء وبدأت أفكر. لكن البحر مات. وبيروت تتمدد على أطرافه وهي تمسك بورقة صغيرة عليها كتابة مبهمة.

كانت تتبعني. عصبت رأسها بشريط أسود، حملت بيدها عصاً، وبدأت تلحق بي من شارع إلى شارع. الشوارع ضيقة وأنا أهرب في جميع الاتجاهات والظلام الكثيف يحجب طريقي. تقدمت مسرعاً وكنت أجتاز جدران الظلام واحداً واحداً، وهي في إثري تجتازها واحداً واحداً. كنت مستلقياً أو جالساً لا أذكر بالضبط وكان الصبي أمامي يركض مثل شبح قصير شاحب الوجه مرتعد الركب والعصا تلاحقه من مكان إلى آخر. الشوارع تضيق. تصغر الشوارع وتتلاشى. لم يعد هناك مهرب. تتلاحق

الشوارع أو تتداخل ولم أعد أستطيع أن أرى كيف يمكنني التخلص من عصا المرأة. لم أنظر إلى الوراء، وجهها كان قبيحاً ورائحة كريهة تخرج من فمها. جسمها المتقوس المتراجع يعطيها مدى للركض. لذلك كنت خائفاً طول الوقت. كانت الإشارات خلف رقبتي تأتي مثل ظل اليد. لكنه ظل له ثقل كبير. فأركض أكثر وتركض أكثر والظلام لحاف.

جلست في السيارة السوداء المسرعة. جلست في المكان المستطيل الذي توضع فيه التوابيت عادة. ومشت السيارة. كنت أقرب أنفي من الزجاج الخلفي للسيارة أضغط إلى الأمام، فأتخيل مشهد أنفي مضغوطاً على الزجاج وشفتاي تعلوان صوبه. فابتسم دون أن أخل بحركة الشفتين المضغوطتين على الزجاج حتى لا يختل المشهد. مرّ قطيع الماعز. كان سواده يلمع تحت أشعة الشمس الحارقة، وكانت المرأة تمشي خلف القطيع حاملة بيدها اليمنى سطل اللبن. وهي تتلفت على الجانبين مفتشة عن زبائن لحليب الماعز. تقدمت منها. حملت واحدة من القطيع قبلتها على خدها وابتسمت.

لا أزال أركض بين الأزقة. وصلت إلى حافة زقاق ضيق مليء برائحة الناس.

المرأة بعيدة عني حوالي عشرة أمتار. انعطفت يساراً فوجدت نفسي أمام باب منخفض.

طرقت الباب. ففتحت المرأة الباب لكنها وضعت العصا جانباً. مدت يدها لتصافحني أعطيتها يدي. دلتني على سجادة موضوعة وسط الغرفة الضيقة الجدران وعليها طاولة مستديرة قصيرة الأرجل. وفوق الطاولة صحن كبير مليء بحبات الفول المدمس. جلس رجلان حول الطاولة يأكلان. وعندما التفت إليهما، أشار إليَّ الرجل الأول أن أجلس إلى جانبه. جلست. أعطاني رغيفاً. أخذته بيدي. أخذت قطعة منه وضعتها في صحن

الفول، ثم حملتها ببطء إلى فمي، وبدأت آكل الفول. كان طعمه لذيذاً. مددت يدي كي أتناول لقمة أخرى، فابتدأت حبات الفول تتحرك وحدها. قفزت من اللقمة وابتدأت تتسلق ساعدي الأيمن. حاولت أن أزيلها. لكنها كانت تتشبث بيدي. حاولت أن أزحزح واحدة منها كانت تؤلمني بشكل خاص، لكنها كانت لا تتزحزح. ابتدأ رأسي ينمل تنميلاً خفيفاً متواصلاً. نظرت إلى الخيط الأسود الذي يكون عادة على رأس الحبة. كان ينفتح والرأس يهتز فيما هو يتقدم. في الجهة الثانية ابتدأت حبات الفول تقفز من الصحن وآثار الزيت لا تزال عالقة بها وتبدأ تقدمها باتجاه يدي الثانية ورجلي. تزحف، تتحرك ببطء واثق من نفسه وأنا أحاول أن أنزعها عن جسمي. تقدمت وانتشرت في جميع أنحائي. حاولت أن أصرخ، فخرج صوتي أنيناً خافتاً بالكاد سمعه الرجلان الجالسان إلى جانبي اللذان كانا ينظران إليّ وهما يبتسمان ويهزان أكتافهما يمنة ويسرة علامة الرضى. وقعت أرضاً، سقط رأسي على بلاط الغرفة الأسود. تقوس جسدي على السجادة، تقدمت الحبات صوب العيون والأهداب. فأغلقتهما مخافة أن تتسلل صوب البؤبؤين لكنني لم أبك كنت أئن أنيناً متواصلاً.

هرعت المرأة. أمسكت بعصاها وبدأت تضرب الحبات ضرباً متواصلاً، وجسدي يئن تحت الضربات. والرجلان ينظران إليّ وهما يبتسمان ويهزان أكتافهما علامة الرضى.

ـ أنا ذاهب قلت له.
ـ إلى أين؟ كيف تتركني في هذه الغابة البعيدة.
ـ سوف أمشي، وأنت عليك أن تعود.

افترقنا. خرج اللون الأبيض وابتدأ يغطي حاجبي الرفيعين. كنت أتعجب دائماً من كونهما رفيعين إلى هذا الحد. والذي زاد من تعجبي هو

إعجاب النساء بهما. مرة كنت أمشي وسط الشارع. وقفت امرأة وقالت لي وهي تبتسم: هل تقبل أن أستبدل حاجبي بحاجبيك الجميلين؟ ابتسمت لها وذهبت إلى أقرب مرآة ونظرت إلى حاجبي وابتسمت لهما.

تقدم اللون الأبيض، وكانت الغابة خضراء. خرجت نحوها وابتدأت أمشي. كنت أمشي بتمهل شديد. واللون الأبيض يتقدم نحوي ويغلف وجهي وجسدي. وقفت أمام صنوبرة، أمسكتها بذراعها فمشينا معاً. ثم تركتني وانغرس جسدها في الأرض. بدأت أركض. السيارة تمشي بسرعة جنونية وكنت أركض. أحمل تحت إبطي كتاباً صغير الحجم رميته. أسرعت. فتحت فمها وبدأت تنظر إليّ. وصلت إلى حافتها وكان اللون الرمادي يغلفني. تقدمت. وبدأت أتمدد. أصبحت يداي طويلتين (ولا أذكر وضع رجلي)، مال رأسي إلى الأمام (ولا أذكر وضع شفتي) وارتفعت ارتفاعاً شاهقاً إلى أعلى. ثم وجدت توازني وهويت. حركت أطرافي ثم فردتها واخترقت الوادي، دون أن تشعر الحجارة بقدومي. حركت أطرافي ثانية لكنني بدأت أهوي. وسقطت على الحجارة. نظرت حولي، كان الريش يتناثر على الوادي ويعلق فوق رؤوس الشجر.

- هل نذهب؟
- إلى أين؟
- إلى الغرفة.
- لماذا؟
- لنلعب
- ماذا نلعب؟
- نلعب لعبة عود الكبريت.

مشينا صوب الغرفة. جلب علبة كبريت شمع. أخذنا عودين.

فتحهما، حتى صار عود الشمع يشبه ثوباً واسعاً يحيط بالرأس الأحمر. أوقف العود الأول منتصباً ثم أسنده بالعود الثاني الذي كان مائلاً قليلاً، وكان رأسه الأحمر معكوفاً قليلاً إلى الأسفل وأكثر انخفاضاً من رأس العود الأول. أشعلنا العودين فدارا حول بعضهما قليلاً ثم سقطا على علبة الكبريت.

ـ هل انتبهت؟

ـ نعم.

ـ هل انتبهت أنها رقصت ثم ماتت؟

ـ نعم انتبهت. ولكن لماذا رقصت؟

ـ حتى تموت.

تقدم الولد زائغ البصر وكان ينظر في اتجاهنا بعينين مفتوحتين. تبع الراهبة في تحركها إلى الداخل.

ـ زائر جديد.

ـ زائر جديد لكنه قبيح.

سيصير جميلاً. مشينا ببطء صوب السور الذي يلف الملعب. نظرت إلى شاربيه، ينموان ببطء. سألني إذا كنت أحضر التلفزيون. أجبته إني أحب بعض الأشياء التي تعرض هناك. لكن الضجيج الذي يحدثه أولاد الميتم يمنعني من التمتع بالبرامج.

خرج صوبنا وكان حليق الرأس. تقدمت نحوه. ـ اسمك يا ولد.

ـ اسمي سعدون. أجابني وهو يرتجف.

ـ عمرك.

ـ سبع سنوات.

ـ جيد، جيد. أتبعني. (تبعني) لماذا ترتجف؟

أصبحت شاباً والشباب لا يرتجفون، على كل حال أنت هنا في بيتك

الجديد. ونحن أخوتك. أنا وهو (أشرت بيدي إلى زميلي الواقف على سور المدرسة) أخواك الكبيران. مفهوم؟

ـ مفهوم.

ـ هل يعجبك شكل شعرك الجديد؟

ـ يعجبني.

ـ غداً سوف تدرس النجارة، وتتعلم الدروس المفيدة وتمشي معنا في الدفن. هل رأيت كيف يمشي أولاد الميتم في الدفن؟

نظر إليَّ وقال وهو يلهث من الحماس أنه رآهم، وأنه يجب أن يمشي مثلهم في دفن الناس وأنه شاطر في الدرس ويحبنا. وأنه سيذهب الآن إلى الحمام ويرجع لابساً ثياباً جديدة أهدته إياها أمه قبل مجيئه وأنه سوف يفرح. وأنه يحبنا.

ـ احملني على كتفيك.

حملته على كتفي، وابتدأ يروي لي أنه يرى الشباب يتمشون في الطرقات. نزل عن كتفي. ذهبت إلى الرواق الطويل لأبحث عن صديقي الجديد، فرأيته يبكي.

ـ لماذا تبكي؟

قال أنه حزين وأنه اشتاق لأمه. أجلسته إلى جانبي وبدأت أروي له الحكايات، أخبرته قصة فنجان الشاي، دون أن أخبره طبعاً أن الرجل مات قبل أن يشرب الفنجان. قلت له فقط أنه لم يستطع أن يتذكر طفولته.

ـ لماذا لم يستطع أن يتذكر طفولته؟

ـ لأنه كان يبكي عندما كان صغيراً. عليك أن لا تبكي حتى تستطيع أن تتذكر طفولتك عندما تكبر.

ـ وأمي؟

ـ أمك لا شيء. عليك الآن أن تفكر بعائلتك الجديدة. المهم أن تعيش كما يجب، أن تفرح، تلعب وتتعلم.

أخبرني أن الذي قص له شعره أوجع رأسه. قلت له أن لا يخاف، لأن وجع الرأس يأتي ويذهب. أما شكل شعره الحالي فإنه يأتي ولا يذهب حتى يصبح رجلاً كبيراً. عندها سوف تخرج من الميتم إلى الحياة، وتبدأ من جديد وتتزوج وتنجب أطفالاً لا يأتون إلى المياتم. ابتسم وابتدأ يخبرني عن أولاد الحي الذين كان يلعب معهم.

كنا نجتمع في الشارع الضيق ونلعب لعبة الصنم. وكنت أصير صنماً أكثر الأحيان، لكنني كنت أركض من حين إلى آخر قبل أن أصير صنماً.

حملت الصنم ومشيت. كانت الطريق طويلة وكنت أمشي. رأيت رجلاً يهرول، فسألته عن باب المدينة. أجابني أنه لا يزال بعيداً وأن عليَّ أن أمشي كثيراً حتى أصل. مشيت ومشيت. وعلى باب المدينة تقف امرأة تحمل حقيبة جلدية، وتسأل الناس أسئلة. سألتني أسئلة وجاوبتها أجوبة. لكنها مدت لي يدها اليمنى وأعطتني بطاقة. دخلت. كانت معتمة. تقدم نحوي حاملاً بطارية يد وأجلسني. ورأيت رجلاً يقبل امرأة دون أن تعترض ثم حملها بين ذراعيه وأركبها في سيارة وسارا في الشوارع البعيدة. التفت إلى يميني فرأيت الظلام يصفع وجهي بيد تتفتت. نهضت عندما أضيئت الأنوار وخرجت من الباب. لكن المرأة لم تكن واقفة على الباب. فمشيت وحدي.

والدائرة تدور.

نبت الوبر واشتد وبدأ لونه يميل إلى السواد. درسنا. وكنا في الدائرة التي تدور. نحمل الأغصان المرقطة باللون البني، نفتتها، ثم نعيدها إلى مكانها ولا نتوقف عن الدوران. وعندما سقطت الدائرة على الأرض، عادت لتدور ببطء لكنها تدور.

ـ لا تضع يدك في جيب بنطلونك.

وكنت أضع يدي في جيب بنطلوني وأبكي وأتابع النظر من الملعب. أسرعت الدائرة. فتحت كتابي وقرأت. والأموات يموتون بكثرة. والدائرة تدور، لكن الراهبة ثابتة في مكانها.

أسرعت الدائرة. حركة الدائرة قوية قلت له. خرج صديقي من الدائرة فوجد نفسه خارج السور. وسمعته يصرخ أنه يريد أن يعود فيما كانت الطريق تبتلعه.

الثامنة مساء جاء وقت النوم. حملت أهدابي وأغمضتها ونمت في الدائرة.

سمعت صوتها وهي تقول كلاماً غير مفهوم. ثم فهمت كل شيء. مددت يدي إلى صحن الطعام وابتدأت آكل بغير شهية. فهمت كل شيء وأحنيت رأسي. فرأيت الشجرة كبرت، ونظرت إلى جذورها، كانت تعقدها على شكل حمامة. أحنيت رأسي وأنا أستمع إلى الموعظة على الجبل.

بكت الغابة وهي ترميني بنظرة حنان ومدت يديها نحوي وحملتني. حملت الغابة ومشيت. وطوقني رداء المرأة الواقفة على باب المدينة. لكنها لم تسألني أسئلة ولم تنتظر أجوبة. أومأت برأسها لي ففهمت كل شيء.

رأيتُ أمامي مجموعاتٍ من الناس، يحملون على خاصرتهم تابوتاً من الخشب ويسيرون إلى جهةٍ مجهولة، على المسافة الفاصلة بين موت اللحظة وموت اللحظة. لم يموتوا: خلف أعينها تتكوم أصوات الدماء التي تموج وهي تتوثّبُ على ساعدي. انتظرتُ حتى نامَ الجميع. تسللتُ إلى الشاطئ، ورميتُ شباكي.







انحنى، التقط حصاة، وضعها على عينيه ثم قذفها إلى المياه المالحة.
لكنَّ الموت يبتعد مسافاتٍ طويلة.

- ٤ -

لـم أكن أمشي. عادة أترك لحذائي حرية تقرير مصيره، فيقرر مصيري ويأخذني عبر الشوارع والأزقة. ثم عندما يتعب يأمرني أن أنام. فأنام وأنـا أحلم. وأنهض في الصبـاح أو في المساء أحمـل حـذائي ثم يحملني ويتـابـع سياسة تقرير مصيري. ينزلق فوق برك المياه محدثاً أصواتاً لها قيمتها التاريخية دون أن تفقد قيمتها الفنية المباشرة. فحذائي قديم في هذه الأرض وعلاقاته قـديمة. وهـو يعلم المناطق الأسـاسية في جسـد الأرض، فيحكها ويتـركها أمامي وهي تتلوى.

ـ لا، ليست الأحذية متشابهة. فلكل حذاء رائحة. الأحذية مثل المدن والسجون. الحذاء حـالة شـاملة لا تستطيـع أن تمر بهـا هكذا. عليـك أن تناقشها. أن تفسرها.

ـ لكن الأحذية لا قيمة لها. قيمتها في فاعليتها.

ـ الأحـذية، فعـالية؟ كـلام. تجليط. لا علاقـة للحذاء بـأية فعـاليـة مباشرة. الحذاء مصير يشبه المعارك المهمة.

حمل الحذاء وجهه ومشى. مشيت. لم أنس.

أين هي البداية؟ سألني وهو يبصق. عادة لا أطرح هـذا السؤال على

أحد. لم أجاوب كنت مشغولاً بذكرياتي. هناك العديد من المشاكل التي لم أستطع أن أجد لها حلاً. المرأة، الباب والنافذة. غادر الرجل الرصيف ومشى وحيداً. مشيت إلى الطريق. وقفت. كانت الطريق خالية. لا صوت. لا رائحة. أين هي البداية؟ هجم عليَّ السؤال وبدأ يضربني بشكل وحشي. لم أجاوب. كنت مشغولاً بالبحث عن رائحة حذائي. أنا لا أفهم عادة سبب طرح الأسئلة. تعودت أن لا أسأل أحداً. دائماً يأتيني الجواب على الأسئلة التي لم أطرحها. وعندما أطرح سؤالاً يصبح السؤال رجلاً أعمى يضربني بوحشية حتى أنسى السؤال وألتهي بجراحي وأوجاع عظامي.

ـ كانت البداية امرأة ـ كانت البداية شجرة ـ عرنوس ذرة ـ غابة ـ أنابيب ـ وحشا بسبعة رؤوس وسبعة أجنحة.

البداية كانت هم. وهم كانوا داخل الأحذية، والأحذية على الطاولة، ورؤوسنا لا تصل إلى الطاولة إلا بعد أن نقف على كرسي من الخيزران.

ـ لماذا أسأل دائماً وأنتظر الجواب؟ لماذا يكون الجواب خارج الموضوع دائماً؟

ـ ما هو الموضوع؟

الموضوع أنا. الموضوع نحن. الموضوع هم. عندما هرب منصور من الميتم لم يكن أنا ولم يكن نحن ولم يكن هم.

ـ كان هو؟!.

كان خارجاً. كنت داخل الجميع. فالميتم وحدة خلية. لا تستطيع أن تفتت عناصرها.

لكنه هرب.

ـ لم أهرب. خرجت. وكان خروجي موتاً. كان خروجي. هم حملوني وهو رفعني ونحن نموت، وأنا أكتب القصة.

ـ لم أفهم. ما هو الموضوع.

الموضوع لا يهم. لأنه حين يدخل دُرْج الطاولة يصبح مجرد مكعبات أو مربعات. الموضوع لا يهم. حين نسرج الفرس وتركض الفرس في الصحراء أو في سباق الخيل يصمت الموضوع ويتكلم الشيء الذي يموت.

ـ لم أفهم. لا أحد يفهم. مجرد حلم. مجرد واقع. مجرد تجربة شخصية أو جماعية.

ـ لكنني لا أفهم.

ـ ليس المهم أن تفهم. المهم أن تموت.

عندها هرب منصور من الميتم (عندما خرج منصور من الميتم) كان شديد الحساسية ويحس دائماً بحاجة إلى الهواء. هربت قال لأنني أكاد أختنق. وعندما خرجت كان هناك عضو واحد من جسدي يقلقني ويهمني: أنفي. فأنا أريد الهواء. ليس من أجل غسل رئتي أو تجديد الدورة الدموية. ولكن من أجل حاسة تموت. من أجل حاسة الشم. تسلقت الجبال، تجولت في الغابات، وكان لأنفي طعم رطب. ولم يكن راضياً. جلبت له كل ما تمناه، وكل ما طلبه، لكنه لم يكن راضياً. أمس اكتشفت السبب. جلبت كومة من الحجارة أغلقت أذني بها. أغمضت عيني. ربطت يدي خلف ظهري. أغلقت فمي وأمرت لساني بالنوم فنام. وها هو أنفي وحيداً يقودني. يتسلق بين مخارج الأصوات لكنه يحس دائماً برطوبة الشتاء. وهو يكره الرطوبة، يكره العرق ويحب المساحات الناشفة. مشيت مسافات طويلة ولم أتعب. كنت أمشي وأقدامي تنتقل بين المسافة والمسافة دون أن أحس بحاجة إلى النوم. حتى وصلت إلى ورقة بيضاء كتبت عليها وصيتي.

لم تكن الورقة بيضاء. كانت تميل إلى الاصفرار، لكنني كتبت عليها وصيتي. كتبت أنني لا أريد أن أموت. وأنني لن أموت، لذلك لا حاجة بي إلى الوصايا. مجرد تقليد يجب أن أقوم به. أنا لا أحب مخالفة التقاليد بشكل جذري. كتبت وصيتي على ورق التقليد. كان الورق أصفر ولم أكتب سوى أنني لن أموت، لذلك لا حاجة بي إلى الوصايا.

لم يسألني أحد إذا مات منصور، ليس هذا هو المهم. المهم أنني بعد أن وصلت إلى الورقة وخرجت منها لم أشاهد أي وجه على الإطلاق. صارت علاقاتي تتفاعل مع الأخشاب. أجلب خشبة أقطعها أعيد تركيبها. أجعلها إلى جانبي. تنام هادئة وتنسى تاريخها. أنام إلى جانبها وأحس بحاجة إلى إعادة ترتيبها. أوقظها وأعيد صياغتها. تستسلم ليدي، ثم تعود إلى النوم من جديد.

استراحة.

دخل إلى البيت. كان البيت حزيناً. لم يجد زوجته. صرخ لها قالت أنها آتية. جاءت. جلس إلى جانبها وابتدأ يتكلم. لم تكن تسمع، فهي تعلم أنه يكذب عليها. لكنها تجلس إلى جانبه لتسمح له بالكذب كل مساء. كان يعرف أنه يكذب، ويعرف أنها تعرف لكنه يستلذ بلعبته اليومية. سكت. أخبرته عن الأولاد وعن مشاكلها. لم يكن يسمع فهو يعرف أنها تكذب لكنه يستمع إليها. ثم أكل ونام. حلم أحلاماً كثيرة. حلم أنه أصبح رجلاً مهماً. كان يعرف أنه يحلم. لذلك عندما سمع جرس الساعة في الصباح، انزعج كثيراً، فهو يريد أن يستمر الحلم، ليس خوفاً من الواقع. بل من أجل لذة الحلم نفسه. هكذا عاش ومات. وحين مات. بكت زوجته

كثيراً. هذه المرة لم تكن تكذب، لكنه لم يعرف أنها لم تكن تكـذب. مات هكذا. وانتهت قصته.

بعد أن شرب الماء مشى. الماء شيء جميل. لكنه كـان حزينـاً. وقفت المرأة أمامه وأشارت بيدها إلى الداخل.

- لا أريد أن أدخل. أنا تعبان.

- بل ستدخل لأنك مسؤول.

- لكنني تعبان.

- لا يهم. ستدخل.

مشت المرأة وتبعها الرجل وكانوا في الـداخل. جلس بينهم. تكلمـوا جميعـاً الواحـد تلو الآخر وبصـوت هادىء ورزين. وكنت لا أتنحنـح ولا أجيب. كنت مليئـاً بـالأوجـاع، وأخيـراً قلت لهم أنني أريـــد أن أمـوت. فأخطائي كثيرة، ولا أستطيع إصلاحها. وقفت. لم يقف أحد. مشيت. لم يمش أحد. خرجت وحيـداً ودخلت خلف الأشجار، لم يكن هنـاك سوى ساحات مليئة بالناس. كان للساحات علامات وللوجـوه على أبـوابها أنـين خـاص ينزلق عـلى شفتي. مشيت. استقبلت وجه اللحـظات وهي تغـادر وكنت ثابتاً في مشيتي لا أتحرك ولا أنفعل. حتى اصـطدمت بجدار طـويل واقبية فارغة عبئت بالخلايا. أخذت خلية ورميتهـا على الشـاطىء فكبرت وامتلأ البحر بالأنواع. فقلت للبحر أنني مسافر وحدي.

كان حزيناً. ولم يكن أحد يعرف سبب حزنـه. كانـوا كلهم حزانى ولم تكن المسافة بينهم مكشوفة. كانت المسافة مسطحة لا تتداخـل ولا تنفجر

الأصـوات على مسـاحتها. تمتـد امتداداً عـارياً. تـرسم لنفسهـا إطـارات متداخلة. وكانوا في داخلها يرسمون على وجوههم إشارات سريعـة تذوب ولا يبقى منها سوى ارتعـاشة قصيـرة. دخلوا الواحـد خلف الآخر. حملوا أوراقهم، كـانت ملساء بـلا نتوءات ولا تتلوى في داخلهـا حروف العلة. جاؤوا وعلى رؤوسهم أصوات تتبعثر. أمواج تتكسر على أهدابهم. ارتموا.

لكل رجل ملامح خاصة. لكل أصبع شكـل. ولكن المساحـة كانت ملامح الجميع دون أن تكون لهـا إشارات خـاصة. ارتمى الـوجع أمـامهم وكانوا يبطئون في سيرهم وعلى رؤوسهم تفرد العصافـير أجنحتها وتبقى في طريقها. ومشى الليل في اللحن البطيء حاملاً سـرة الرجـال الذين نسوا صورتهم في الماء ومشوا خائفين.

ـ ماذا تفعل هنا؟

ـ ألملم عن وجهي صورة النساء. أحببت الكثير من النساء. ولم أحب واحـدة. مرة أمسكت يـدها فنسيت طعم الـوادي العميق وأشـرفت عـلى الغرق.

كانوا يستمعون إليه وهم يتلوون على بساط طويل، مد على المساحة، ولم يكن أحد يشعر أنه أحب امرأة. كانوا يتبادلون الحديث بصوت خافت قبـل أن يدخـل عليهم ويجلدهم. ولم يكن طعم السـوط يختلف عن طعم النساء، أجبته. وقفوا. ورفعوا أصواتهم علامة البدء في الكلام، فخرج من حنجرتهم صوت أغنية واحدة تتحدث عن الموت. قلت أنني أعرف اللحن وأعرف الكلمات. فـأجابني أنـه قرأ الكلمـات في كتاب ممـزق. وخـرجت الأوراق وحدها لتتحدى. وماتت النساء قبل أن نكتشف رائحة الثدي.

صرخت أنني حزين وحاقد. وأنني أكاد أجن. فقال لي صديقي أن أنزلق. فأنزلقت. وابتدأت مساحة الانزلاق تكبر والأشياء تصغر وتصغر حتى صارت الأصفار تحيط بي من كل جهة. لكل صفر شكل داخلي. وأنا أتدحرج وحدي، وحولي رفاق الطريق يتدحرجون. مددت يدي فأمسكت بيده. صرنا في كعب الوادي. تذكرت أن للنار طعم أعقاب السجاير فشربنا كومة من النار ونمنا إلى جانب بعضنا ولم تكن المسافة تتلوى.

- أين؟

- هنا. تقوم بيننا الفواصل. نحن داخل شروطنا المعقدة، ظروفنا الموضوعية، نواجه شرطاً واحداً.

- شرط لغوي حقير. احذف (إذا) وتعال نتجاوز هذه اللعبة الحقيرة. حذفنا (إذا). تجمعنا اعتقلناها وطردناها من القاموس.

- هل تغيرت أشياء كثيرة؟

- لم يتغير شيء كثير. تغير بعض الأشياء.

نحن مشرطون بالتاريخ. تاريخ أجوف ومائع. صابوني. يتزحلق على قشرته جميع الرجال. نحن داخل علب الصابون نتزحلق أمام أول قطرة ماء.

- لن نحذف الصابون، أجابني وهو يبتسم. التاريخ ليس الصابون ولا الماء، التاريخ هو ما نصنعه نحن. ما نرسمه وما نريده. نظرت إلى الأفق أريد أن أربط حذائي. تخرج إرادتي كالسهم الممطر وتنغزل داخلكم. ولكن الصابون يأتي، ويشردني داخل منفضة السجاير، فأتربع مثل أمير عربي وأنظر إلى النساء.

ـ ما علاقة الصابون بالنساء؟

ـ هناك علاقة عضوية تربط الصابون بكل النساء. لكن التاريخ يتدحرج خلف نظارتي ويمسح الطاولات. تعالوا نغير التاريخ إذن. هجمنا على التاريخ هجمة رجل واحد. سقط أحدنا في حفرة مليئة بالرمل وبدأ يمضغ أسنانه. حملناه على أكتافنا. فصرخ بنا بصوت كالرعد. المشكلة أننا لن نطال التاريخ إذا لم نجمده على طاولة. جلبنا الطاولة، جلسنا حولها بكل جدية ووقار فاكتشفنا المساحات التي تخترقها مسام غريبة. المشكلة ليست هنا. يلعب الحيز المكاني دوراً هاماً في حياة الشعوب والأمم والقبائل. فدرجة القرب أو البعد عن خط الاستواء تقرر الكثير من الأشياء. وهي التي ستحسم المسألة. تعالوا ننتقل إلى حسم المسألة. لكن الحيز المكاني كان مسافات شاسعة يتخللها إيقاع المطر على العيون الحافية. والعيون تتسرب داخل الأصابع وتمحي ألوانها. نظرت إلى الوجه المسافر وتوقفت عند أول إشارة. كان الناس يتجمعون حول خيط طويل من الدم، ولم يكتشف أحد مصدر الدم ولا كيف تشكل خيطاً طويلاً بلا بداية ولا نهاية.

ـ لا نستطيع رسم الخرائط بهذه الطريقة الوحشية.

كان الناس يتبعون خيط الدم وكنت أمشي خلفهم حتى تشكلنا كابوساً من الخوف ورغبة الانتقام. قلت لهم أنني خرجت يوماً في قديم الزمان من هذه القبيلة وأنني أعود إليها حافياً، أتشرد على أرصفة شعرائها. رسمت لهم قبلة الأحشاء، فحملوني ووضعوني هنا. لذلك عندما أخبركم عن تجربتي فإننا نستطيع أن نتجاوز هذه الأشكال المباشرة للنظر في الأمور. فخيط الدم كان بلون أحزان النساء اللواتي تجمعن على كفي وجعلن أكتافهن على صوتي. فانطلقت أركض تحت مظلة كومة من الدماء، حتى اهتديت إلى الخيط الطويل الذي ربطته بسرتي ومشيت خلفه حتى وصلت إليكم. قبلتكم ومشينا صوب الوادي. وأحرقنا غابة كاملة، حتى نكتشف لذة

إحـراق الغـابـات. ثم جلست وحيـداً تحت أشجـار الحـور. كيف نقـطع الأشجار ونمضغ الجذور، بحثاً عن وجه امرأة مبلل بالماء؟

لا ليس الخيط هو المسألة. اجتمع الوتد مع الأغصان وقال أن الحركة تبعث وهجـاً. حملت الوتـد والحركـة. وعندمـا اكتشفت أن لي أصـابـع، أمسكت بكفي ووضعت الـوتد في أسفـل التراب وصـرخت. كان صـوته ينبعث من أمطار كثيفة. وغرق الإسفلت بالماء الهاطـل من وجهي. ليست المسألة تركيباً مبهماً ومحاولة اكتشاف. المسألة مشروطة باكتشاف المكان الذي نقف عليه. الأرض كبيرة والصحراء مليئة بالرمل.

ـ هل هذا سجن أم مستشفى مجاذيب.
ـ إنه غابة ينبت فيها الرجال بلا قيود.
ـ هذا ميتم. . .

الصحراء مليئة بالرمل. لكني رأيت النخلة الوحيدة التي تعانق الأرض كل مساء لتعطبها رطوبة وماء. خلع ثوبه ربطه بـالشجرة وأمسـك بيدي. ركضنا حول الشجرة. ركع. ركعت. قال تعال نخترع، اخترعنا مربعات واكتشفنا أن الإضاءة تتشكل من حركـة الأجساد التي تنحني، وأن الحـركة ليست لحظة كثافة خارج الموت. ابتسمت له وكانت عيناه تتراجعان داخل الشجرة المنحنية وهو يرسم صورة جسده على الأرض التي تتمدد مع تموجات أصابعه على جسدها. نظر إلى وجهي وقال أنه يحب أن يموت في غابة مليئة بالأشجار وأنه يكره الأسماك. نظروا إلينا وقالـوا أننا نضيـع وقتنا في رسم أوتاد لا نستطيـع صناعتهـا بأيـدينا. قلت لهم أننـا على الأقـل نتسلى عـلى مشارف أوجاع الأوتاد المنحنية. وأن هذا شيء مشروع على الأقل. جلسنا كومة من الحصى وابتدأنا نعد دقات قلبه، كان يرسل أنيناً خافتاً ثم يتقلب

على جنبيه محاولاً إحصاء مسار الدورة الدموية. لكنه حين أقر بفشله أمسك العصا وغرسها في بطنه وهتف للأشجار التي لم يرها. كان يختزن في ذاكرته جميع الأصوات التي تخرج من جسدي. يتزنر بالأوراق ويركض وحيداً وحين يتعب يأتي إلى جانبي ويسألني عن ميعاد قدوم لقائنا بالأشياء التي يكرهها. فاضطر في كل مرة إلى تذكيره أننا نعيش وإياها في حيز واحد لكن العادة تقتل كل شيء. وحين نستفيق من العادة ونكتشف أننا ما زلنا نعايشها نتكوم حول بعضنا ونفتق الأوراق بحثاً عن أي شيء.

ـ ماذا يجري هناك؟

لا شيء. أحداث تتراكم وتتكوم. يأتي حاملاً مكنسته العتيقة المهترئة من كثرة الاستعمال. يكنس ويضعها جانباً، ثم حين يسأم يعود فيرشها على وجوهنا. ولكن لماذا؟

ـ لأننا لم نكتشف بعد أشياء كثيرة.

ـ والقبيلة؟

ـ تعيش ولسنا شعراءها.

ـ لماذا؟

ـ لأننا لم نمت بعد.

وضعت على جسدي أسفلتا ومازوتاً يسترق النظر إلى الوجوه ورميت صوتي فنبت مجموعات من الأطفال الذين يتدافعون حول عنقي.

لحظة.

كانت وحيدة صغيرة. وتمتلىء بالمفترقات المجدلة على صوتي. تسترق النظر إلي من خلال الجدار وترسم لوحة وجهي على زندها. تمشي فأحن إلى كعب رجليها وأتمدد أمام يدها، فتحملني على وجهها وتقطف الأزهار وترميها على قبري. لم تكن حزينة لأني مت. لكنها كانت تمتلىء برائحة الألوان عندما تصل قرب أذني وتوشوشني أنها تحبني. لم أحملها. لكنها في كل مرة تطلب يدي. وتقيم معها حواراً فتخرج يداي نحو وجهها الطري. أتمدد نحوها وأحس بقدرة على الوقوف. ثم عندما تذهب أروي لأصدقائي أنني أحبها. وأكتب وأخترع لها ألعاباً ملونة بلون عينيها.

الرأس بين قوسين هو الجدار المربع. التفت إلى صديقي وأنا أتساءل عن أسباب ضمور الجسد أمام حركة الرأس.

ـ والجدار المربع هو مساحة المطاط التي تفصل رؤوسنا عن المرآة. مات الرجل بحركة عادية جداً وتحدث يومياً. ولكن من أين يأتي المطاط الذي يفرز بطوننا تتمدد على وجهي. صرخت من الوجع وأنا أتمتم بسيل من الشتائم. وصل إلى مفترق الرأس وابتدأ رأسي يتماوج إلى اليسار قبل أن ينحني. كان خفيفاً ومقوساً إلى الوراء. لكنه ينبت آلافاً من الحبات السريعة الذوبان في الشعر. أتى، ابتدأ يقبل جبيني قبلات حميمة ثم ارتفع قليلاً حتى وصل إلى شعري. ضغط شعري تحت آلاف الزنود التي يملكها. حاولت أن لا أنحني. كانت المقاومة عبثاً واستحالة موضوعية. انزلق قليلاً صوب أنفي وترك عليه آثاراً سوداء. وصل إلى فمي، حاول اختراق الشفتين. أغلقت شفتي وأنا أكز على أسناني. استدار قليلاً، تراجع. عاد إلى جبيني وانزلق بسرعة نحو أذني، همس بأن الأرض محلول كيمائي عادي. انحدر باتجاه رقبتي. مكث

قليلاً تحت ذقني وهو يحاول الامتداد اخطبوطياً. قلت لا بد وأنه سيخنقني. لـذلك يجب أن أكـون جاهـزاً قبل أن أمـوت، وعلي أن لا أدع المـوت يمر هكـذا. لكنه عـاد إلى الارتفاع، وصـل إلى شفتي واخترقهـا وابتدأ يقبلني قبلات حارة محدثاً صوتاً خفيفاً يشبه صوت نباح كلب مريض. تراجعت إلى الخلف، كان رأسي يحدث أنيناً عضلياً متفاوت الارتفاع، وابتدأت أبصق على الأرض. ارتفع بشكل شاهق فـوق رأسي ثم بدأ ينـزلق. كنت أحس بثقل الأوجاع على دائرة عظام الجمجمة. حاولت أن أتقدم إلى الأمام، لكن حركته كانت أسرع من حركة رأسي. هوى. ارتطم بشعري ثم وصل جبيني إلى التراب، حشوت فمي بالرمل وانتظرت أن يجلو عن رأسي حتى استعيد قدرتي على التنفس. لكنـه تابـع عملية ضغـطه. وابتدأ الـرأس ينغرس في التـراب. كنت متأكـداً أن عيني لن تـريـا شيئـاً بعـد الآن. لكنني قـررت المقاومة. حاولت أن أستعين بيدي ورجلي، لكني تذكرت أن أطرافي قطعت في الشتاء الماضي وأني لا أستطيع سوى الغوص. دخل التراب بين أهدابي ففهمت عذاب الأشجار. لكني لم أرفع صوتي مخافة أن يزداد حقده عـلي. ارتفع مرة أخرى، فارتفعت رقبتي فوق التراب وذقت طعم الهواء الناشف. قلت هذه آخر محاولة. صـرخت. لم يكن أحد إلى جـانبي. كنت وحيداً. تـرنـح رأسي. ارتفـع، تقـدم، سقط ولكن الـرطـوبـة لم تكن تبحث عن مخارجها. وصلت رقبتي إلى السطح، هاجمت، تـراجع قليـلاً أمسكته بـين أسناني وبدأت أفتته وأبصقه. كان يحاول الإفـلات. الطعم بـالغ البشـاعة والرائحة كريهة. غرست أهدابي في الرمل وابتدأت أتحرك ضمن دائرة قطرها رقبتي. وسمعت أصوات ارتطام الأوجاع على أذني. زحف رأسي إلى الأمام ثم استدار بسرعة، فوجدته قد استعاد قدرته وابتدأ يضربني بشكل منظم. صمدت في مكاني وابتدأت أترنح. لن أفقد ذاكرتي. الأصوات تسـطع في عيني. لكن الأوجـاع تتزايـد. لماذا يضـرب عـلى الـرأس بعـد أن قـطع

الأطراف. جاءت المرأة، حملت أهدابي وقالت أنها ستضعها في آنية للزهور. ربما تفتحت. أومأت برأسي قليلاً. لكن الأزهار لن تتفتح في الأواني. من أين آتي بالماء لأسقي الأزهار التي لن تتفتح؟ حملتني كومة من الحصى ومشت في طريق طويل.

مساحة مربعة، تعادل مساحة غرفة عادية. الأرض صفراء فاتحة تميل إلى لون الصحاري عند هبوب عواصف رملية. المكان مضاء بأشعة شمس حارقة. في الطرف الجنوبي من المساحة كان وحيداً يتثاءب حين لا يستطيع الكلام، ثم يرتفع ببطء فنرى الرقبة والصدر واليدين والرجلين. تغوص الأطراف في الرمل، في الأفق إشارات سوداء نعتقد أنها ذباب أو حيوانات برمائية صغيرة. لا صوت. الصمت الكامل يقترب من حالة هذيان جماعية. تحركت الأطراف لآخر مرة ثم غاصت في الرمل وبدأ الرأس وحيداً يتململ. الذباب يكبر ويصبح بحجم حذاء كبير، يحوم حول الرأس. نقترب من المشهد قليلاً. الوجه بلون الرمال، والحاجبان الكثيفان يترنحان قبل السقوط. نفض الرأس التراب عن الشعر والحاجبين بحركات سريعة نحو اليمين واليسار. تراجع إلى الوراء. أخذ كومة من الرمال في فمه وبدأ يبصقها فتخرج مثل شلال رفيع من الماء الأصفر. تذكرت أني لا أرى الظلال. سألت زميلي الواقف إلى جانبي ـ ولكن أين هي ظلال هذا المشهد بأسره؟ فأشار إلي بأن أسكت لأن الكلام أمر غير مرغوب فيه. ثم أشار بأن أتبعه. تبعته. قال أن الظلال كائنات ممنوعة. لذلك اضطر الموقف إلى الوقوع في بعض الأخطاء التكنيكية التي يجب عدم إثارتها حتى لا نفسد المشهد. رجعت إلى مكاني. جلست، أصبح رأسي بمحاذاة الرأس. تمدد

الحذاء وصار مثل جدار طويل. ابتدأ يتقوس ثم تراخت أطرافه. علا فوق الرأس وأقام فوقه مظلة أطرافها تتلاصق بالأرض. لم يتحرك الرأس. انحنى الحذاء وابتدأ يلامس الرأس في حركة مداعبة واضحة. أشار الوجه إلى الرمل بأهدابه، فخرجت من الرمال أيد كثيرة ترسم علامات مبهمة، ثم هوت الأيدي على الأرض. فتذكر المتفرجون أن الأيدي تمتد إليهم، وأنهم لا يستطيعون الإمساك بها. انخفض الحذاء، وبدأ يرندح لحناً جنائزياً، ما لبثنا أن رددناه جميعاً وراءه. ابتسم الحذاء. أمرنا بخلع أحذيتنا، خلعناها. جاء رجال كثيرون ورموها في قاع البئر.

- لماذا لا ينتحر الآن؟
- لأنه لا يستطيع.
- لماذا!
- إنه يقاتل، انظر إليه جيداً.

ارتفع الرأس إلى أعلى الحبل، ثم انزلق عليه بأسنانه وابتدأ الدم يفور من أذنيه.

- إنه ينتحر.
- كلا، إنه يرسل إشارات مجهولة.

وتذكر المتفرجون، إن الدماء تهرب من خاصرتهم، وإن الأيدي التي امتدت إليهم احترقت. خرج جسد الرجل من التراب وقف وحيداً، وكانت الشمس حادة. مسح العرق عن جبينه وأشار إلينا إشارة النصر ثم سقط على الرمال. انتفض الحذاء الأسود، دار حوله، ثم خرج من المساحة.

دنونا من الرجل، كان يتنفس بصعوبة.

ـ ولكن ماذا يجري لك؟
ـ لا شيء، دائماً يأتي.
ـ ولكنك لم تقاوم بما فيه الكفاية.
ـ نسيت بندقيتي وأتيت وحيداً.

نظرت إلى وجهه، وحدثته عن أمي، لكنه رفع يده ملوحاً وعاد إلى المساحة المضاءة.

سألته لماذا يعود وحيداً. فسألني لماذا أنا وحيد. ونام.

لم يكن الحذاء هو المشكلة. فهو جدار وليس مشكلة. عندما حملت جثته لم أكن وحيداً. القناع في يدي. أتقدم. أخترق الأرض وأحمل سيفي في يميني. من الأعلى إلى الأسفل تخرج خطواتي. وحيداً أمزقه قبل أن أموت. جاء صوت الساعة يعلن أن الوقت انتهى، وأن علينا الآن أن نقوم بأشياء أخرى. التفت، كنا ساحة كبيرة من الأجساد، نخترق هتف في المقدمة، نمزق أجاب من الوسط. ننتحر ردد الجميع قبل أن يتشكلوا أبراجاً من الأصوات المخنوقة. كيف نواجه حركة رتيبة، تقرع الرأس وتعيد القرع وهي ليست أكثر من حشرة صغيرة وسوداء اللون. الحركة نفسها، تتكرر عشرات المرات على مسافات واسعة. تحتجب الرؤوس تحت الرمال ثم تعود وقد أنهكها صوت الدعسات على الأرض.

وقف الرجال عند منعطف الشارع، تجمعوا حول ملايين المساحات المضبادة. اخرجوا أوراقهم الشخصية ورموها في الشارع. ثم مشوا. ماذا

نفعـل؟ نرمي وجـوهنا خلفـ الصحـراء قبل أن تنبت الشمس عـلى وسادة طفلتي. لا نخاف، حمل الرجال مفاصلهم داخل الرمال، التفتـوا إلى الوراء ليقولوا وداعاً، خرجت أحزانهم على المفترقات. أخذ أحدهم سيجارة وبدأ ينفخ دخانها في الهواء. وتساقط رماد الدخان على الأرض. جـاء داس على الرماد، أخذ السيجارة وضعها تحت حذائه وبدأ يتمشى في شرايين الرجل. تـذكر أن زوجتـه تنتظره خـرج من الشارع وبـدأ يركض صـوب بيته. في الصحراء حين تداخلت الرؤوس عـلى مساحـات واسعة، كـانت الأجساد تحفر في الأرض علامـات الملل والتعب، يأتي صوت المرأة فيـوقظ في داخلي أحلاماً صغيـرة. أحملها وأختـرق الصفوف. لا أصـل إلى الأرض قبل أن تحترق أظافري. وعندما أصل أفتقد وجهي، فأنسى رائحة الماء وهي تنزلق على جسمي معلنة نهاية المشهد. انشطر الرجل إلى نصفين وبدأ يدور حول نفسه. ثم حين سقط على الأرض معلناً اقتراب النهاية، ذهب كل نصفـ إلى مقبرة. ولم نعثر بعد على اسم هذا الرجل.

ـ لماذا أنت هنا؟

ـ لأني أحب أن أتفرج على جسدي وهو يموت.

اذهبوا. اذهبوا. انتهت اللعبة.

ليست اللعبـة مزاحـاً. من يدخـل فيها هـو الذي يقـرر متى يجب أن تنتهي.

خرجت الأجساد من المساحات تكومت حول بعضها. ننتهي حين نقرر نحن. ألم أقل لكم مصيرنا هو ما نصنعه نحن بأيدينا. جلس الرجال على الأرض وبدأوا يلتقطون مصيرهم حبة حبة. تطوعت مجموعات أخرى بحفر

فجوات عميقة في الرمل. أمسكنا بأيدي بعضنا وبدأنا نحس بطعم الفرح الذي يختلف عن طعم الموت. وميزنا أشياء كثيرة.

ـ لكن كيف؟ هكذا نستطيع.

ـ طبعاً نستطيع.

ـ وخيط الدم.

ـ سوف نمزجه بالأغاني.

ابتدأت الرؤوس تتكوم حول الأحذية. جاء الرجال بعد أن فرغوا من وضعها في الحفر. أشعلوا سجائرهم، حملوا أوراقهم وبنوا بيوتاً من الطين والماء.

لكنها لم ترجع. انتظرتها وأنا أحمل الحبال في أسناني وأرسم على الأرض صورتها. هربت ولم تعرف أني بنيت لها بيتاً من الطين والماء. لن أخرج قبل أن تحمل هي الأوتاد وتضرب في الأرض.

ـ لكنك تمشي بلا حذاء.

ـ هل تذكر حين وضع الحذاء وابتدأ يضغط. وكدت أموت من الوجع. في تلك اللحظة جاءت، وضعت على شفتي قطرة ماء. فخرجت إلى أعلى. هل تعتقد أننا انتهينا.

ـ طبعاً.

ـ لكنني حزين من كثرة استعمال الحبوب الطبية.

بعد أن انتهى الرجل من وضع الأحذية في الحفر، رموا فوقها التراب. جلبوا الحطب أشعلوه ورقصوا حوله رقصات عديدة. انتصف الليل ونحن لا نزال نرقص سوف يأتي النهار ونحن لا نزال نرقص.

ـ لكن كيف استسلمت هكذا ورضيت أن تسقط؟

ـ لم تستسلم قـاومت. سال دمي ودمـاء النـاس. ألم تـر دمـائي وهي تشتعل فوق آبار الموت، عندما حملناها كنا عشرات من الرجال، نقذفها بالحقد والأحلام. ثم حين انتهت المغامرة وضعناها في هذه الحفر.

تجمعت الأيدي حول عنقي. واقتادتني إلى جبل طويل علي أن أتسلقه حتى أصل إلى سطح البيت تسلقت وسقطت، عشرات الأيـدي التي امتدت نحوي كانت مقـطوعة وبـلا أذرع. نزلت عـلى الحبل، ربـطته بخـاصرتي ومشيت. تبعتني الأيدي التي بدأت ترسم صورة وجهي على الرمل. مشيت طويلاً. وفي كل مرة كنت أحاول فيها الجلوس كـانت الأيدي تشـير بأن لا أجلس وتـدفعني إلى الأمـام. مشيت وابتـدأ العـرق يتسـاقط عـلى شفتي. أحسست بحاجة إلى النوم والماء. لا مكان. أي أنني أمشي إلى الأمام دون أن أشاهد شجرة واحدة أجلس في ظلالها. تقدمت الأيدي. أحاطتني دائرة وابتدأت تتشكل إشارات حول عيني. أحسست بحاجة إلى النوم والماء. (لا مكان. أي أنني أمشي إلى الأمام دون أن أشـاهد شجـرة واحدة أجلس في ظلالها) أغمضت عيني قليلاً فرأيت وجه الثمار الملوحة بالملح والصـابون. تقدمت لأقطف ثمرة. فامتدت الأيدي إلى يدي وقطعتها. نظرت إلى دائرة الأيدي، كانت يدي تقف إلى جانب الأيدي الأخرى، وهي تذبل أو تنحني لست أذكر بالضبط. استلقيت على الأرض، لأن طعم الثمرة كان حامضاً وبحاجة إلى قليـل من السكر. نمت. وعنـدما استيقـظت كانت المـربعات نائمة، قفزت فوقها ورسمت على الأرض شكل كوب من الماء. ومشيت. لم تتبعني الأيـدي هذه المـرة. وصلت إلى شجرة كثيفـة الأغصـان جلست في ظلالها وبدأت أشرب. ثم رأيت غابة فسيحـة مليئة بـالأشجار وبـالرجـال

الذين يجلسون في ظلالها. تقدمت صوب أحدهم وسألته ماذا يجري؟

ـ لا شيء.

ثم تذكر أنه رآني. فبدأ يروي لي ذكرياته عن لحظات لقائنا وكيف هممت مرة بضربه لأنه كان كثير الحركة ولا ينتبه جيداً إلى الدروس. ثم قال لي أنه أحضر زوادة من الطعام. قبلت دعوته لأني كنت جائعاً. جاءت مجموعة من الرجال والنساء والأطفال. جلسنا وبدأنا نأكل. في الطرف الآخر من الغابة، كانت ترتفع أصوات مليئة بالقشور. لم نكن نفهم شيئاً، غير أننا أحسسنا بحركة غريبة. التفت صوب الرجل، وسألته ماذا يجري؟.

ـ لا أعرف. لكنني أعتقد أن الأمور، لا تستطيع أن تستمر هكذا.

ابتدأت الأصوات تعلو، لكنها ما زالت مليئة بالقشور. لا أفهم شيئاً، نظر إلي الرجل وابتسم، أشار إلى جبينه فرأيت وجهي يسيل منه الدم. وقفت. فات الأوان أجابتني الأصوات البعيدة. لكن الماء يسيل من الأشجار. وتكومت الأحذية والوجوه في مكان واحد. واجتمع الضباط والجنود والمرتزقة وأمروا الجميع بالدخول. دخلنا. نظرت إلى صديقي وسألته لماذا مات الرجال. فحدثني عن الزلازل. لا نستطيع التحكم بالزلازل. الظاهرة الطبيعية تسحقنا، يأتي الزلزال محمولاً على أكتاف الزلازل التي سبقته. ويقتحم. يحرق كل شيء. لم أقتنع. حاولت أن أنام. جاء الرجال ووضعوا على رقبتي علامات وسلاسل. وأمروني أن أتكلم. حدثتهم عن مبلغ احتقاري للظواهر الطبيعية. ابتسموا. نظرت، رأيت خلفي مجموعات من الناس، يحملون على خاصرتهم تابوتاً من الخشب ويسيرون إلى جهة مجهولة. النساء في المقدمة ووراءهن جموع غفيرة من الموسيقيين والكهنة والرجال والخوذات.

ـ من امتطى الحصان؟

وأعود وحيداً. قلت لهم بأنني مليء بالقشور.

على الطاولة، كان الماء يرتجف داخل الكوب. لكنه لا يخرج أبداً. شربت قليلاً من الماء. رميت أعقاب السجائر وبدأت أرسم الوجوه. لكل وجه خصائص. أخذني من يدي وأشار إلي بأن نبتعد. الأشياء تتجمع وحدها ورائحة الأمطار لا تعطي شعوراً بالحب. لم أفهم ماذا يقول، وضعت يدي في برميل الماء وانتشلتها، ابتدأت الفقاعات تخرج. لم تعد الأصوات مليئة بالدخان. يغطي الدخان كل شيء، لكن الأصوات تخترقه. نظرت إلى قطعة الدخان، كانت مليئة بالفجوات والتعاريج. الأصوات تنفجر، والجسد ينفرج وهو يتساقط على الأرض.

تحمل الأرض على تلالها صوت المسامير التي تنغرس لتحدث فيها علامات لا تمحى. يتشكل الناس مطارق من الرغبة التي لا تتوقف. يغزو العطش رمال الشاطىء فتتشقق مسامها وهي تنحني كي تصل الموجة إلى أضلعها. نظروا إلى الوجوه المرمية أمامهم وتقدموا صوب الدخان الذي ينتشر على المساحات بأسرها. ابتدأنا نتقدم ونعقد حول مفاصلنا أعلام القبائل المجتمعة. غرزنا في بطن الدخان إشارات تدل على قدرتنا على عدم السجود أمام آلهة بشعة ووقحة ومشينا كان الجسد المرمي على الشاطىء يتقوس، وتتفتح في مسامه مسارب الهواء. انحنى التقط حصاة، وضعها على عينيه ثم قذفها إلى المياه المالحة. وانتشرت داخل الأروقة عصافير صغيرة، تلتقط حبات العشب وتطير بها إلى فضاء صغير. وضعت يدي على جبيني، رممت صوتي وانطلقت. وفي كل خطوة أخطوها يتسع الفضاء ويمتلىء بانفجار النار على سطح جلدي.

ـ من يتوقف لحظة الانفجار، يفقد وجهه.
ـ ولكن الموت يبتعد مسافات طويلة.

لا نقف على أرجلنا لكننا نقف على المساحة الفاصلة بين موت اللحظة وموت اللحظة. لا نموت. خلف أعيننا تتكوم أصوات الـدماء التي تخـرج وهي تتوكأ على ساعدي. انتظرت حتى نام الجميع. تسللت إلى الشاطىء ورميت شباكي.

ـ لا أحب الأسماك.

ـ لكنك تقطف الأوجاع عن جسد الأرض وهي تتقدم.

يأتي صوت البحر، اهتزت الأشجار وهي تستقبل الدخان. لم تسقط، تمددت في وسطه. وابتدأت تبتعد عن عيني. امتلأت الفجوات بأصوات الخارجين من القبور، وهم يحملون البنادق ويتقدمون. نظروا إلى الشجرة وابتسموا. وابتدأوا يشعلون أصابعهم ليضيئوا المساحة المعتمة.









يأتيها البحر، يدخل في صدري. مشى على الرمال. أخذ كمشةً من الرمال ورماها في البحر. جلس
واستراح. تأتي المدينة، ترقص أمام أطرافه، وتصلّي. حمل التابوت على كتفه. لم يبكِ.
كان يحمل التابوت. لا وقت الآن للبكاء. سوف أبكي عندما أرجع إلى البيت
ابتدأ يبكي ولكن بعد فوات الأوان

- ٥ -

الأصـوات واحدة. ادخـل عالم الأصـوات فلا أجـد المخـارج. أرتمي خلف نبتة نيئة وأنتظر مجيء الأصدقاء.

كان داخل صوته يحاول أن يتسلق.

الأصوات واحدة. عندما أرسم على صوتي أصابع الجلوس فوق وسادة البداية، أسقط على الأرض قبل أن أبتدىء.

تقدم، جلس على الأرض وابتدأ يبكي.

تدخل الأصوات صوب مفترق المراحل، تغرس خناجرها داخل الجلد ولا تصل إلى نخاع العظم..

انحنى، لامست كتفـه الأرض، وضع يـده اليسرى تحت ذقنـه وابتدأ يرسم باليمنى تلويحات بعيدة.

لا مكان للأصوات حين يمتلىء المكان برائحةالقادمين من داخل العلب المصفوفة في حجرة العين.

سقط رأسـه على الأرض، وبـدأ جسمه يتقـوس إلى أعلى ثم استـدار بشكل كامل حتى دخل رأسه في كومة من الحجارة، انتشل يده.

حين تتجمع الأصوات في حفرة واحدة ينفجر الوجع. تنحني مـراحل

الموت، ويدخل السهم وهو يمتطي تعابير الوجه الممتلىء دماً.

صوت ـ ١ ـ

نخرج من علب الكبريت ونمشي خلف رؤوسنا. نبحث عن مداخل الأوراق في أعلى الشجرة مسافة تستطيع أن تحمل وجهي. يتقدم الوهج ويكتب كلمات جديدة. تتسنن الكلمات وهي تبحث عن الأقلام. أما القلم البعيد فيبقى بعيداً حتى يصل إلى أول سطر في الدائرة.

صوت ـ ٢ ـ

من يقف ممتلئاً بالأعشاب المستديرة حول طفل يتلهى بثدي أمه. يقف الطفل خارجاً من ذاكرتي. وفيما هو يسقي الأعشاب، ينسكب العشب على استدارة الفم وتتواكب مفترقات الطرق قبل أن تنحني وتسقط داخل جدار الثدي. يجف الثدي قبل أن تصل الشفتان إلى الإمساك به. فيسقط الوجه على المرآة. ينكسر الوجه ويأتي الأطفال، يلتقطون بقايا المرآة، يصنعون منها لعبة لأولادهم الذين لم يولدوا.

صوت ـ ٣ ـ

تتناثر المطرقة خلف الجدار. لا يلتقطها الرجل. الماء حركة داخل السهول الواسعة، بداية الأوبئة التي تمتص أزهار المشاتل المزروعة على حافة بيت تساقطت نوافذه ولم يبق من أخشابه سوى مطرقة تحمل بصمات ممهورة بشهادة ميلاد قديمة.

صوت ـ ٤ ـ

المدينة حالة تفتح أبواب الداخل. أصداء الحركة الخارجة من زواريب المشانق الممتدة فوق كهوف الجريمة. الرجل مدخل إلى البحر.

صوت ـ ٥ ـ

نحمل أشياءنا ونغادر قبل أن يبتدىء الصراخ الخارج من جوف الرمال المهترئة. وعندما نغادر، نتوقف أمام مفترقات أناملنا فنعيد كتابة أهدابنا فوق الصخور البعيدة، ونحمل للمسافرين أمتعة الفواصل. لا مكان للماء داخل الدفاتر.

صوت ـ ٦ ـ

المدخل إلى إحراق الطرقات، حافة بركان هادىء لا ينفعل. ندخل تحت رماده لنبحث عن مدينة مطوية بعناية ولا نستطيع اختراق حجاب الوجوه. خلف المدينة تماثيل عتيقة، نجلس في ظلالها ونشير إلى النساء وسط مسامير الطرقات. لكن المرأة التي تأتي، تضع يدها على بطنها وتشير إلى تورم الأطفال في داخلها. نتساءل لماذا يتورم الأطفال قبل الولادة. فلا يجيبنا سوى صوت الشاحنات التي تسير على المرتفعات الجبلية. نعود إلى الجلوس قبل فوات الأوان. نحمل أبناءنا داخل قطرات الماء.

أصوات متفرقة.

كل الأصوات علامات لا تشير إلى شيء. لا نخترق ولا نتوالد. الأصوات بطيئة وخائفة. المسامير في الأخشاب. نجلس داخل الصناديق ونحن نحلم بالصراخ. لا يأتي الصوت طلقاً. ينحدر بتمهل شديد ثم حين

يصطدم بالرطوبة يتكوم حول نفسه. ويبدأ في تسلق الجدران ويموت.

المسافة التي تضيئها آلاف الأصابع تعود ببطء إلى السواد. نظرت إلى الأرض، كانت مليئة بالدماء. المسافة، تصير معتمة وهم يعودون إلى الصناديق الخشبية. التفت كنت وحيداً بينهم. نظرت إلى أصابعي، كانت تمسك قلماً، رميت القلم على الأرض، ارتجف ظهري ارتجافات خفيفة التفت إلى الوراء، كان الرواق طويلاً ورمادياً، ابتدأت أركض، تكومت حول أذني بحثاً عن صوت. ركضت إلى الأمام. امتلأ جسدي بالعرق. مسحت العرق عن جبيني، كان أسود ويلمع نصلاً من المسامير. ركضت. وجدت باباً. قرعت. لم يفتح أحد. قرعت. لبطت الباب والحائط. صرخت. جاء رجل طويل القامة، سألني ماذا أريد. قلت أريد الخروج. ابتسم وحدثني أنها مسألة بسيطة. المهم أن نعثر على مفتاح الباب سألته ولكن أين المفتاح؟ أشار إلى جيب بنطلونه، في جيبي. قلت أنني مستعجل ولم أكمل حديثي. فتح الباب وسألني إذا كنت أمانع في أن نخرج معاً لنشرب كوباً من البيرة. قلت إني لا أمانع. ولكني مستعجل. طيب طيب. سألني إذا كنت بحاجة إلى شيء. لم أكن بحاجة إلى شيء.

كانت المدينة بيضاء، تغتسل بالضوء الخفيف. وفي الطرقات يمشي الناس بهدوء وببطء. تابع سيره. وقف أمام الدكان، اشترى علكة وبدأ يمضغها. التفت إلى الوراء لا يتبعه أحد. أكمل سيره وهو يرسل صفيراً خافتاً لأغنية قديمة. أنا لا أحب الأغاني العاطفية. عندما استمع إلى الراديو

أبحث عن أغانٍ عادية تتحدث عن الأطفال. لكني لا أجد سوى الأغاني العاطفية، لذلك أستعمل شفتي بحثاً عن الأغاني التي أحبها. رمى الورقة. لم يعد بحاجة إلى العناوين. أنا حر وأستطيع أن أفعل ما أشاء. ابتدأ يركض. يخترق الساحات والزواريب والزوايا. يتوقف أمام بائع الحلوى، يشتري حبة ويبدأ في مضغها على مهل ودون أي إحساس بالشهية. تتجمع حبات السكر حول شفتيه فيتابع قراءة عيون الناس الذين يمشون بتمهل وبطء. قدر منصور أن الحياة جميلة، وأن الأرض تستحق الأشجار التي تتمايل. فوصل إلى شجرة وبدا يحدثها عن ذكرياته الشخصية، ثم مسح عن جذعها بعض النباتات الحقيرة وقرر أن يتابع سيره.

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا شيء أتمشى فقط، وأنت؟

ـ أبحث عن عمل. أضعت أوراقي في مكان بطيء، فقرر الخواجه طردي من العمل لأني مهمل. أدور في الطرقات بحثاً عن الخواجات، لأسألهم عن سبب وجود العمل في جيوبهم.

مشينا معاً. وضعت يدي في جيبي فلم أعثر إلا على صورته وهو طفل.

ـ ما هذا.

ـ لا شيء، أحب الذكريات. أعود دائماً إلى صور طفولتي. طبعاً لا أذكر أكثر الأشياء التي حدثت. لكني أتسلى هكذا وأنتظر مجيء الأيام التي أنسى فيها هذه اللحظة. مشينا معاً. بدأنا نتعب. تعال معي إلى الجبل. صعدنا إلى الجبل بالسيارة، كانت مليئة بالركاب الذين يتحدثون طوال الوقت عن جنازة رجل مات. وكيف غنى الجميع في مأتمه. سألوني عن رأيي بالجنازة. أنا لست من هذه القرية ولا أعرف الرجل الذي مات ولا أعلم أنه مات. ابتسموا ابتسامة صفراء، هزوا رؤوسهم وتابعوا حديثهم دون أن

ينظروا إلى وجهي أو إلى وجه صديقي. قال لي بأن لا أضع رأسي خارج النافذة. كان الهواء يرفرف على شفتي وذقني..

- متى نصل؟

- بعد نصف ساعة.

تابعت السيارة، تابع الناس حديثهم وتابعت النظر من النافذة.

تعال. ابتدأنا نمشي في الغابات وداخل المنعرجات الجبلية. كان الهواء بارداً ونظيفاً. داخل النوافذ يهرب العشب إلى الأرض وينغرس فيها. جلسنا على الأرض. فحدثته عن شبابيك المطاط وعن الأوجاع التي خرجت من فوهة قلمي. اتكأ على حجر وبدأ يروي لي أنه يبحث عن عمل، وأنه قرر الطلاق لأن زوجته لا تفهم معنى أن يموت الرجل وهو يبحث عن الحطب في الغابة المجاورة. وابتدأ يروي لي حكايات غريبة عن موت والدته التي قررت أن لا تموت قبل أن تزوجه. نهض وابتدأ يلتقط الحصى ويقذفها على الأشجار والأعشاب.

- ماذا تفعل؟

- اضطهد الطبيعة. أتيت إلى هنا لأنني أكره الطبيعة ولا أحب مناظر النباتات الطالعة من فجوات التراب أحب الهدوء والمسيرات المليئة برائحة العنف.

كوم كفه وابتدأ يضربني على كتفي. قلت كفى. قال نلعب. صرخت كفى أنا لا أحب، لا أريد.

- ماذا تريد؟

دخلنا إلى مغارة في قلب الجبل وابتدأنا نتوسل صرخات عالية. كان الصدى يتكوم ثم ينطلق أصواتاً جديدة لم نعد نذكرها. ارتعش الصوت على

طرف الغابة وبدأ يتداخل مع الأشجار، ويتحرك في مجاري العيـون. لكن الأصوات لا تعني شيئاً، تتسلق الأصوات المتقدمة جدرانـاً رطبة، وتهـوي مترددة على الأرض. انتظرت كلاماً كثيراً، لكن الكلام يأتي متقطعاً، حاملاً أوراق السفر البعيدة التي تحملنا.

أمسك الرجل بندقيته جيداً. مشى صوب الغابة وهو يبحث عن قطرة ماء. وقف. وضع البندقية تحت إبطه وبدأ يركضُ صوبنا. أشرنا إليه بقميصي الأبيض، تقدم بسرعة ثم ببطء. وصل. جلس إلى جانبنا وسألنا عن قطرة ماء. ذهب صديقي وجلب له طاسة وضعها الرجل إلى جانبه وبدأ يشرب متمهلاً.

ـ لماذا أنت هنا، أليس المفروض أنك. . .

ـ نعم المفروض أني. . أنا هنا الآن،وتـوقفوا عن طرح الأسئلة العادية.

ـ ولكن ماذا؟.

ـ لا شيء، لا شيء.

وقف، بصق عـلى كفه، حمـل بندقيتـه وكسرهـا على ركبتـه. هـذه لا تساوي شيئاً. سوف أزرعها هنا ولكن لن تزهر.

ـ أليس المفروض أنك كنت تحملها من أجل أن. .

نعم، نعم، من أجل أن. ولكن.

حمل الرجل بندقيته وقرر أن لا يتابع. القصة لا تستحق. الموت ليس لعبة. عندما أموت أريد أن ينفجر الحقد. الرصـاص ليس تسلية. عنـدما أموت أريد أن أغرس حربتي هناك في الداخل. جاء الوقت الذي نستطيع فيه أن نضعهم على قدم المساواة مع آلامنا. عند حافة آلامنا يصبح كل شيء ممكنـاً. كل شيء. أمـا الآن. انظر إلى أولادي كيف لا أستـطيع أن أحمـل دماءهم في صدري. يكبر الأولاد عندما تمتلىء السجون بالرؤوس التي تخرج

من النوافذ وهي تصرخ خارج الحنجرة. لماذا لا أتقدم والطريق واسعة. نتقدم قليلاً ونحن نحرق المظلات. ونسأل عن باب الوادي. لا. لا. القصة تبدأ بطريقة ثانية. لكن زوجته تسأله آلاف الأسئلة التي لا يعرف أجوبتها. يعرف أن القصة ليست هكذا، وأن بعض الرجال احترقوا في المدينة وهم مصرون على أن القصة ليست كما تحكى الآن. لم يأت الوقت كي تروى القصة من أولها. لكنه يريد أن يعرف، لماذا لا يحق له أن يشعر بلذة الانفجار. دائماً في أذني وليس على الطرف الآخر. طبعاً طبعاً أستطيع. عندما تصبح القصة فعلاً غير هذه القصة. جاء الرجلان، سألاه ماذا يريد بعد كل هذا. لا شيء. أنا ذاهب لأنام. لا أريد أن أبقى هنا. خرج لأنه لا يريد أن يبقى وذهب يبحث عن بيته.

نظر الرجلان إلى بعضهما وابتدأت حكاية الخروج إلى المدينة تطول دون أن تتوقف. التقط حبات الليمون وبدأ يقذفها بعيداً. تتدحرج الحبة جيداً ولا ترتطم بشيء. تتوقف عن الحركة وتنزوي بعد أن يسيل عصيرها على التراب الناشف على أبواب المدينة، في شوارعها وتلالها، كانت الأرض مليئة بالأطفال الذين يركضون في كل مكان. الأصوات تتعالى والرياح لا تطال رؤوسهم. في كل زاوية اجتمع فيها الأطفال، كانت الأرض ترسل ارتعاشات خفيفة وتحاول الالتفاف عليهم، كي تشعر بحرارة اتصالها بالموت. عندما نقترب من الأطفال ونرى عيونهم تنفرج العيون وهي تتداعى داخل الحرارة. ويخرج الأطفال من داخل النار، ليحملوا على وجوههم أخباراً كثيرة تمتلىء بها الكتب. تقدمنا، وقفنا في وسطهم. تمتد الأيدي وتشكل حاجزاً من الأزقة المتعددة التي يمر في وسطها صوت واحد. ينفتح المدى على وسط ممتلىء بالصراخ الذي يتشعب مثل حبال الألياف المعدة خصيصاً لتطويق تلال المدينة. لكن الأطفال يتقدمون من الأرض، يضعون

رؤوسهم على التراب، ويعيدون صياغة الأناشيد داخل ابتعادهم عن لحظة التوقف. جلسنا في وسطهم وبدأنا نتساءل لماذا تجمع الأطفال في هذه المدينة وحدها. البيوت تتهدم، والغبار يملأ الأفق. الفجوات الواسعة تحيل الطرقات إلى مجار من القش، الشرفة خالية، وبقايا الكتب والأوراق المآذن تختلط ببعضها. وفي وسط الفجوات، وعلى التلال المحيطة، كانت عيون ملايين الأطفال تتسع لتضع داخل أوجاع المدينة ابتسامة صغيرة ويداً مرتعشة. لا شيء، أي أننا نبحث عن صور أبائنا كي نضعها على حيطان البيوت. لا شيء أي أننا ندور حول الحجارة التي تهدمت، نلفها بالخيطان ونعيد تركيبها على سور المدينة.

داخل المدينة تتحرك الأجساد. الرائحة التي تخرج من الأفواه، تشير إلى ولادة الأوجاع داخل العظام الطرية. أنا رأيته يحمل على ظهره سلة من الفواكه الطرية ويدور خارج الأبواب، بحثاً عن فم أو كلمة. اجتمعنا حوله، وبدأنا نسرق فاكهته، نأكلها أو نلعب بها. كان يعرف وكان يبتسم لنا. أخذني بين يديه، قبلني على جبيني ووعدني بأن يشتري لي لعبة تكرج وحدها على الأرض. يتدحرج الحجر الذي يحمله الأطفال، على الأرض نزولاً ثم حين يصل إلى الماء، يضحك الأطفال، ويعودون إلى بيوتهم في المساء، مبللين بالعرق والماء.

امتدت الحركة الجماعية. لبس الأطفال عباءات بيضاء. خلعوا ثيابهم الداخلية ونزلوا إلى النهر بحثاً عن الماء. داخل النهر كانت حركة الأطفال تعطي لزملائهم مدى للحركة الخفيفة. بكى الأطفال وهم يجمعون أصابعهم عن الأرض. ليست الأوجاع الخارجة من أصابعهم هي الأساس. الأساس هو في هذا التجمع حول الأصابع من أجل التقاطها. أخذ الأصبع بين شفتيه وابتدأ يزحف على الأرض وهو يراقب رفاقه. يتحرك صوب أصابعه بحثاً عن أمه، التي كانت تضع الخاتم في أصبعه وهي تخبره

كيف سيصبح كبيراً عندما يتزوج.

ما هي الأصابع؟

على أبواب البيوت. داخل المسام الداخلية كانت أصابعنا تتجمع. هل تذكر كيف قالت لك لا تضع أصبعك في أنفك يا ولد. أخذ اصبعه ووضعه في أنفه. لكن الأصابع قطعت وصارت الحقول مليئة بالأطفال الذين يقفزون عن الأرض حين يرتطمون بأصابعهم. ألا تذكر، حين وضعت رأسك داخل الباب الداخلي، أخذت الأوتاد جميعها وحطمتها وقلت لأمك أنك ذاهب إلى الحقول البعيدة لتشرب رائحة الأشجار. وعندما وصلت إلى الشجرة، وابتدأت تضع الرائحة داخل فمك، قطعوا أصابعك وأنفك ووضعوك وحيداً على حافة النهر.

لا يزال الأطفال هنا. لكنهم نسوا عادة البحث عن الأصابع. وضعوا أصابعهم داخل الماء الكثير الذي يمتد إلى ما لا نستطيع شربه. قلت لصديقي ونحن لا نزال جالسين، تتحرك الأجساد البيضاء والسمراء أمامنا واحة، لأنني أريد أن أنزل إلى النهر لأسبح معهم. أجاب بأنني لم أعد طفلاً، لذلك لن أفهم ماذا يجري هناك داخل الماء.

(خلعت ثيابي (خلع ثيابه) لبست عباءة بيضاء، تقدمت صوب النهر، المياه مالحة وحارة. وضعت رأسي داخل الماء وأنا ألعب مع الأطفال، وأتداخل في عيونهم. وضعت الماء في راحتي وشربت. كانت المياه مالحة وحارة. فلم أشرب كثيراً).

وعندما خرجت من الماء، قلت لصديقي أن السباحة جميلة هنا. فسألني لماذا ثوبي ملوث بالدم. نظرت إلى عباءتي البيضاء، كان لونها أحمر، ومليئاً بالبقع السوداء.

ـ اخلع ثوبك وتعال نتحمم ولنذهب من هنا.

جلست على الأرض، فصارت البقع الحمراء تتمدد مثل أجساد النساء، حملت الأجساد بين يدي، وقلت أنني أتخلى عن ثيابي القديمة. سوف أمشي وحيداً، وأبقى هنا مع الأطفال، لنلملم الأصابع ولنسبح مع الأسماك الملونة. أمسكني بيدي ومشينا معاً. كانت الأصابع على الأرض تتلون بلون العشب، لن يتمدد اللون خارج المدينة، لأن أوتاري لا تستطيع حمل الحجارة بين رأس الجسر ورأس الطفل الذي يموت.

تكدست أجساد الأطفال وصارت على شكل رياح، تدخل الرمل النازل من الحجارة، وتعيد تبويبه مدخلاً مدخلاً. تتكون الأشياء حول الرياح التي تدخل صوتي، وتقيم هناك. وعندما أحاول أن أضع يدي عليها، تقذفني داخل الماء حيث الملوحة تشبه الأصابع، والأصابع تشبه الأعضاء التي تفتتت وسقطت على حافة عجلات السيارات المسرعة.

مددت يدي لأمسك الحبل، كان خيطاً من الأوراق التي تتفتت. نظرت، كان الأطفال مساحات من الانفجارات العالية. نقذف وجوهنا. حركة واحدة إلى خلف الوجوه والوجوه تتكسر مثل إبريق الماء الذي يسقط.

شكل الرياح = الأصابع المزروعة في عيني.
الأصابع = أطفالاً يحملون الألوان + الدم الخارج من أحشاء الأسئلة.
شكل الرياح + الأصابع = صورتي التي انكسرت على رأس حربة مسنونة على المياه.

نزعت النباتات البرية التي نبتت على عيني. أمسكنا بأيدينا ورسمنا على الأرض صورة غريبة لملايين العيون التي يسيل منها الدم والماء. لم يعمّد

أحد. صارت المعمودية مجرد فلكلور.

أين الوجوه؟ فجوات، أربع تلال، مجرى صغير، مياه مالحة. حركة تتكرر دون الأشياء جميعها، الثياب البيضاء تتداخل وتختلط على مساحة كبيرة. تأتي الشمس، تحترق حبات الملح على جلودنا، ننظر إلى الأمام، لا نستطيع أن نشاهد وجهاً، خارج دائرة البقع السوداء.

هل انتهينا؟.

نظر إلى وجهي وهو يسأل. ألا تريد أن تذهب؟ تململ في وقفته وأشار إلى الشوارع الضيقة.

ـ لكن ماذا نفعل؟. لم ينته شيء. لم يبدأ شيء حتى ينتهي.

ـ غير معقول. بدأت أشياء وانتهت أشياء. الساعة لا تتوقف.

ـ لم يبدأ شيء. أمس أحرقت أصابعي واليوم التقطتها عن الأرض ووضعتها في فمي، وغداً سوف ألم عيني بعد أن أضع وتداً في المحجرين. لكن لم يبدأ شيء حتى ينتهي. عندما يبدأ، لا ينتهي.

نظرت إلى ثيابه، كانت الأوراق تتساقط من يديه. لم يمر المحراث على جبينه، لكن التجاعيد كانت مليئة بالحجارة والرمال. وقف وأشار إلى نقطة بعيدة وقال أنها ستكبر مثل الأطفال الذين سوف يشربون من أنهار مالحة لا تحصى. ثم أمسكني ومشينا. سألني لماذا تتساقط الأوراق من يدي، ولماذا جبيني مليء بالحجارة والرمال.

ـ لا أعرف. ربما لأنني لم أنم جيداً البارحة.

وأنا لم أنم جيداً البارحة. يجب أن ننام.

يتقدم الموكب. يقف الأطفال على جانبي الطريق وهم يحملون أمتعتهم

بأيديهم. الطريق تراوح مكانها. إلى أين يسيرون؟. إلى حافة النهر، لينتشلوا الملح ويكوموه على الأرصفة. غداً يتكوم الملح، وتأتي العيون لتستحم فلا تجد الماء، فتلتجىء إلى الملح، وتذوب في داخله، حبلاً يتكوم من الأنسجة الحادة. عند كل حافة يرتفع الصوت ليخبرنا إعادة تسلسلية للأصوات التي نعرفها. طوى رأسه بين فخذيه وابتدأ يصرخ من الألم. آلام الولادة. آلام الموت. إنها فقط آلام المعدة. سوء التغذية + سوء الهضم = آلام المعدة أليس كذلك. كلا المفاصل المتورمة + الملح = المعدة التي تنفرد بالجسد وحدها. فتخرج تجاعيد الطرقات الملتوية على ملايين الاحتمالات من الجسد.

ـ هل نمشي؟

ـ نتوقف.

ـ كيف؟

جاء رجلان طويلان وابتدآ بضربنا بالسياط والألواح الخشبية. حملني الأول ووضعني في زاوية، ربطني بالحبال والحديد. كما قام الثاني وحمل صديقي إلى زاوية ثانية وربطه بالحبال والحديد. مددت يدي نحو صديقي. لم تستطع يدانا أن تلتقيا في منتصف الدرب. سألني إذا كنت أتألم، فسألته إذا كان يتألم. تجمعت دفعة واحدة حول وجهي، فقلت أن لا علاقة للإنسان بالجذوع، ولن أنتظر حتى امتلىء بالعشب الذي يندفع من التراب ليعرش على جسدي. حاولت أن أتقدم لا أستطيع. الحركة تتوقف وأعضائي تسيل على التراب، الشمس حادة صرخ صديقي.

الرجل الأول: الشمس حادة وأنا أتمدد على بساط. ماذا نفعل؟ لم أعد أعرف كيف تمشي الأشياء هنا، ولماذا أنا مربوط إلى هذه الزاوية.

الرجل الثاني: ننتظر غياب الشمس حتى ننام.

الرجل الأول: مستحيل. من ينام هكذا. أنا أبحث عن نظارة أضعها على عينيّ، ثم أحاول الذهاب.

الرجل الثاني: لن تذهب. سوف تبقى هنا في مواجهتي، لأنك إذا ذهبت فسأنسى أنني مربوط هنا إلى الزاوية، وأتلهى برسم المخططات الخاصة. لذلك لن تذهب، لاتستطيع أن تذهب.

الرجل الأول: تمدد نحوي، أريد أن أقبلك. يجب أن نبقى هنا معاً.

الرجل الثاني: تمدد أنت.

الرجل الأول: . . . .

الرجل الثاني: . . . .

رجال كثيرون: ليس الرجل رجلاً. تورم المفاصل حدود طويلة بين اللحظة والموت. يقف رجلان، يموت كل الرجال. ننغرس على بساط طويل. لكن حدود البساط مقطوعة بالسكين الذي يمتلىء باللحم ورؤوس الأعشاب البيضاء.

تكوم الرجال الكثيرون حول الرجلين وابتدأ البحث عن منطقة يكون فيها اللحم خفيفاً، حتى نستطيع أن نردهما إلى الممشى الطويل. انحنيت حتى لامست يدي وحاولت الجلوس على الأرض. كان ظهري خشبياً غير قادر على الالتفات نحو مصدر الصوت والرجل الذي في مواجهتي ينام وهو يبتسم. يحلم، الليل بارد. لكن الرياح التي تنخر في أذني لا تحدث طنيناً. تتناثر حول الطبلة وتقرع قرعاً متواصلاً. ابتدأت أعد على أصابعي السجاير التي أستطيع تدخينها في يوم واحد، فوجدت أن هذا العدد كبير جداً، وأني لا أستطيع أن أسمح لنفسي بهذه الرفاهية. مددت يدي وابتدأت أقطع النباتات البرية التي تتكدس تحت خصري.

قناديل تضيء المكان. جاء رجل أصلع وسألني إذا كنت أريد الذهاب من هنا. فأخبرته عن الرجلين الطويلين. لا بأس. ذهب وجلب قدمي. لبستهما كما ألبس الحذاء. مشيت. التفت صوب الرجل الآخر، لا يزال نائماً، أيقظته. تشابكت أيدينا ومشينا في طريق مليئة بالمستنقعات والأوبئة رجلي اليمنى تؤلمني قليلاً. لا بأس، وسأمشي وأمشي، حتى أصل إلى ظل كبير أنام تحته وأحلم.

ـ علينا أن نترافق حتى نهاية الرحلة.

ـ ولكن هل نقوم برحلة؟

ـ طبعاً طبعاً. أنا أبحث عن أولادي وأنت تبحث عن لا أعرف ماذا.

قلت أنني لا أبحث، لكنني سوف أجد شيئاً آخر أستطيع أن أنام في ظله.

مشى الرجلان طويلاً، وكانا يلتقيان بكثير من الناس يتحدثان معهم وينصرفان. (لكن لماذا نحن على خشبة ضيقة؟ فلنتسع). أخبرني أنه شاهد أحد أولاده أمس، وأنه سيذهب معه.

في الزاوية الصغيرة يجلس ولد صغير يلعب بالرمال ويضحك عندما تسقط الطابة في الماء. استدار الرجل صوب الولد الصغير وابتدأ يلعب معه ويتذكر كيف كان يلعب عندما كان صغيراً.

داخل المسام يتجمع الجسد ويتناثر ليلف القش داخل الحريقة الصغيرة.

أما الرجل الآخر، فقد تعب من البحث عن ظل كبير ينام تحته، لذلك اضطر إلى النوم بلا ظل. وعندما أستيقظ من النوم بدأ يبحث عن أوراقه التي سقطت على الطريق فلم يجدها، لكنه وجد شريطاً قديماً ومهترئاً، أخذه وربطه حول معصمه الأيمن ومشى. تتوالد الطرقات وهو يبحث عن عصفور

يأكل حبة قمح حتى يرسمه.

تعلم وهو صغير أن منظر العصفور الذي يأكل حبة قمح منظر جميل. لذلك قرر أن يرسم صورة جميلة. وابتدأ يبحث عن العصفور حتى يرسم صورة جميلة.

وعندما التقينا قلت له، تعال لنرجع ونبحث عن عمل. لا يمكن أن أظل هكذا عاطلاً عن العمل، أنت تعلم ذلك وأنا أعلم ذلك. نشتغل أي شيء من أجل سعادة الآخرين.

أقفل التلفزيون وابتدأ يحدثني قصصاً غريبة عن أعماله الكثيرة. اشتغل الآن موظفاً في شركة كبيرة. للشركة مدراء وحجاب ووسطاء أنت تعرف. وأعود إلى البيت. مللت أنت تعرف. مللت الأشياء التي كنا نقوم بها معاً. عندما يكبر الرجل يبطل العادة السرية أنت تعرف. والآن نشم الهواء كل أحد ونلعب ونناقش. أنت تعرف وتفهم. أما لماذا؟ فأنت تعرف، لا لزوم للشرح. كل القصص التي قرأتها كاذبة. لا يحدث شيء أبداً. يعتاد الإنسان على كل شيء أنت تعرف.

ـ طبعاً. طبعاً. أعرف كل شيء. لكنني لا أعرف لماذا نعرف كل هذه الأشياء.

أنتُ تعرف ١ + ١ = ٢. أنت تعرف. العلم هو كل شيء.

دخلت في درج الطاولة وبقيت هناك قررت أن أرتب أوضاعي النفسية على هذا الأساس. اشتريت أقمشة صغيرة كتبت عليها وربطتها على باب الدُّرْج، لتدل على أن لا أحد هنا. أقمت فترة طويلة أحاول فيها أن أرتاح. داخل الدُّرْج ظلال كثيرة، ظلال في كل مكان طوال الوقت. وأنني أستحق الأشياء والناس. فقررت الخروج. لكني تذكرت أني تركت محبرتي في الداخل. عدت لأبحث عنها، لم تكن هناك. ثم حين وجدتها كانت خالية

من الحبر ومليئة بالأظافر. اعتقدت أن الأبواب ستفتح، ففتحت وأقمت في الخارج، حيث أنا الآن. فتحت ثوبي فامتلأ بالأمطار. قلت هذه بداية ممكنة وخرجت أبحث عن الأطفال والرجال. كانوا لا يزالون هناك. سألوني أين كنت؟ كذبت عليهم. قالوا تعال. داخل المسام أشياء كثيرة نستطيع أن نصنعها معاً. قلت طبعاً. مشينا جموعاً ونحن نرفع أصواتنا. الأصوات تعني أشياء كثيرة. والأصوات المتفرقة كانت هناك داخل الغابة التي قطعت أشجارها.

تخفت أصوات المارة، عندما يبدأ الصراخ من الناحية الثانية. أتقدم صوب البئر، أبحث عن الماء، لا شيء. تتفتت حافة البئر. أحاول أن أمسك بأصابعي. لا شيء. تتفتت فجوات الفخار اليابسة، أمزجها بالماء أسكرها وأعيد عجنها، لكنها تتفتت ثانية. اجلس على حافة البئر، امتلىء بالتورم وأنا أتقدم صوب فوهته، ثم أتراخى أمام بابه، ولا أستطيع متابعة التقدم. فوهة البئر مستديرة وفي داخلها ظلام وأصوات تهمهم ولا تصل إلى السطح. كنا خمسة، عشر أيد مبللة بالفخار والطين. أصابع كثيرة تحاول الانغراس على أطراف البئر. وجوهنا ترتعد وهي تقترب من الشكل المستدير المفتوح على وجوه مجهولة. نجلس على الأطراف، ونطرح أسئلة نعرف أجوبتها سلفاً، لكننا نطرحها، كي يمضي الوقت هكذا.

الاستمرار غير ممكن. اجلس على الحافة ولا أشرب معهم، ولا يشربون معي. أفتح في الأرض حفراً صغيرة لها شكل القبر، ليست بئراً. ادخل فيها واهيل على جسدي التشابيه والأحلام. كيف تستمر صرخة اللحظة والأطراف تتكسر على أصابعي. كنا خمسة وجوه تنظر داخل البئر. البئر وسط الحقل، والماء لا يخرج أو يبدأ. طرف الحبل مشدود على خاصرتي وسط البئر، والبئر لا تعطي ماء. حوله قال المعلم كي تضمني الأضواء من الجهة المقابلة. وعندما نجلس حوله، قال المعلم كي تنحني الأضواء من

الجهة المقابلة. وعندما نبحث عن صوت النهر، نذهب إليه.

ـ لكنا نقف هنا على حافة تتفتت.

ـ مجرد لحظة انتظار ثم نبدأ.

جاء وبدأ كل واحد يأخذ نقطة ويحفر فيها. نستعمل جميع الأدوات الممكنة. مستحيل. لن يخرج شيء أو لا نعرف الحفر أو مئة احتمال آخر.

ـ أنت أخيراً.

ـ نعم أنا أخيراً.

ـ هل وجدت؟

ـ لم أجد.

ـ إذن.

ـ أريد أن أسأل قبل أن أسافر إلى نقطة بعيدة. السياق لا يعجبني. خرجت وحيداً وإلى جانبي امرأة تقول أنها تحبني. أحببتها وابتدأت أروي لها القصص. لكنها قالت أن الأشياء لا تعني دائماً هكذا. وأن الأحلام لا معنى لها فلنتوقف عن الأحلام. ولنبحث عن. . طبعاً.

كنت لا أزال أحس بآلام خفيفة في جسدي، عندما اكتشفت أني أستطيع متابعة البحث عن الأصوات. قلت للمرأة عن مشروعي فوافقت وسألتني إذا كنت أعرف كيف أرقص عندما يذوب الضوء. أجبتها أني أعرف لكني أريد البحث عن الأصوات حتى أجد حاجزاً رملياً أنام في ظلاله. فالشجرة لا تنفع لأنها غير قادرة على الحركة السريعة. وأنا أريد حركة سريعة حين أضحك أو أقبلك. أمسكت بيدها وخرجنا بعيداً عن

الحقول. جلسنا في غرفة ضيقة. دخلت في عينيها ومكثت هناك. ولم أسألها لماذا سوف تموت، لأني كنت أعرف أني داخل عينيها أستطيع أن أبقى حتى تأتي لحظة خروجي إلى الأطفال الذين يحملون على رؤوسهم المليئة بالدماء، دوائر تضيء. أنت تعرف كيف يبدأ الإنسان وهو يبحث عن أمه. يبدأ بالصراخ ثم حين يجدها تكون قد أصبحت كهلة. ولا تستطيع أن تدخله إلى حيث يريد، فيرتد عنها. أنت تعرف كيف لا يبحث الرجل عن أمه. ثم حين يموت يذهب للبحث عنها هناك تحت القبر.

لكنه لا يكره الرجل الذي ينام طويلاً، لأنه لا يأكل كثيراً أو بما فيه الكفاية. بدأ يضرب على الطاولة بيد عنيفة ويمسح الذكريات مثل شريط آلة التسجيل. وقف وبقي واقفاً وسط الغرفة، حتى جاء الليل.

ـ وبعد هذا ماذا حدث؟

ـ لا شيء يمكن أن يحدث لرجل أغمض عينيه. كان لا يزال واقفاً. لم ينم. أغمضهما فقط.

أخذ كومة من التبغ، وضعها في الورقة الرفيعة. لفها، وضع السيجارة في فمه، أشعلها بعود الكبريت. هذه هي المسألة. طبعاً.

نظرت إلى عينيها. كانت جميلة وتقف على الحائط. تمد يديها. دنوت منها. فوق الماء تسبح طيور نسميها النوارس. على ضفاف البرك تتحرك حيوانات برمائية نسميها الضفادع. أمسكت بيدها وسألتها أن تعطيني اليد الثانية. اليد سؤال يرتفع قرب الحائط. سقط سقف الغرفة وبدأ يضيق. تقدمت صوب النافذة.

لَمْ يَبدأ شيء. أمس أحرقت أصابعي، اليوم التقطتها عن الأرض ووضعتها في فمي، وغداً
سوف ألمّ عيني بعد أن أضع وتداً في المجمرة. لكن لم يبدأ شيء حتى ينتهي.
عِندما يَبدأ، لن ينتهي.







- ٦ -

أدخـــل واجهـــة البيت وأجلس. أمسكت بقلمـي ورسمـت صـــوراً ومجلدات، ثم أطفأت الضوء وقررت أن أنام. المرأة إلى جانبي تنام بهدوء، تبحث عن أحـلامها بهـدوء وأنا أطفيء الضـوء أو أشعله ما هـو الفرق؟. أغمضت عيني وابتـدأت أعد القـرارات التي اتخذتهـا، فـوجـدت قـرارات كثيرة. توجعت أصابعي. حين يسكت القلم ينام على طرف الطاولة، أتقدم نحوه لأوقظه. ينهض مذعوراً. ينظر إليَّ ويبدأ في كتابة أحلامه. (يخرج الماء من جوف الأرض، فأصير سفينة عليها ملايـين البحارة والسكـارى الذين يرقصون. الشواطىء بعيدة ولا طعم للرمال. رائحة الموج كثيفة تستطيع أن تمتلىء بصورتي. عـلى ظهر السفينـة يجلس قبطان كهـل يحكي للمسافـرين قصص الميـاه. وحين يغفـو على كـرسيه وتتـدلى سيجارتـه من فمه يتـابـع المسافرون رواية قصص المياه. نشـرب الكثير من الخمـور الجيدة وننـام). نـظرت إليه، لا يـزال يمشي على الـورق ويكتب أحلامـه. أمسكته وكتبت كفى. يجب أن نفعـل شيئاً، انـزوى على طـرف الورقـة، كبرت الـورقـة وصارت سفينة. والقلم يجلس على كرسي عتيق على ظهر السفينـة ويروي للمسافرين قصص المياه..

ـ هل تدخل الدائرة معي أم أبقى وحيداً؟

نظرت إلى عينيه وابتدأ الضوء الشاحب يخرج من خاصرتي. أمسكت بيده.

- لا نستطيع أن نتشكل دائرة. نحن بحاجة إلى شخص ثالث على الأقل.

جلسنا على الأرض، ورسمنا دائرة كبيرة على الرمال، كنا في وسطها يخرج الماء من جنبات الدائرة. فرشت ضوء المصباح على الدائرة وابتدأت أشاهدهم يتقدمون صوبنا. نظرت إلى صديقي، كان متكئاً على ذقنه ينام أو يحلم. حملت المصباح وبقيت الدائرة على الرمال.

عندما هرب منصور من الميتم، اكتشف أن بيروت هي مجموعات من المقابر. وابتدأ يتحدث مع جيرانه وأصدقائه عن اكتشافاته الجغرافية. حدود بيروت الجديدة هي المقابر والجثث. أما الحدود القديمة، البحر، النهر، فرن الشباك الخ، فهي ليست أكثر من خرافات. وعندما كان منصور يروي لأصدقائه حكاية اكتشافاته الجديدة، كان الجميع يضحكون منه. كلنا نعرف أن المقابر موجودة في المدينة وعلى أطرافها، وهذا لا علاقة له بالجغرافيا. وكان أحدهم يحاول أن يشرح له على المستوى العلمي المحض أن القضية ليست بهذا التعقيد، وأن المقابر سوف تزول على المدى الطويل لأن البشرية تستعيض عنها بحرق الجثث وهذا أجمل. لكن إصرار منصور كان يزداد. ابتدأ يشتري الأقلام والدفاتر ويرسم الخرائط الجديدة (الناس يعبرون الشوارع وهم يحملون أمتعتهم الخفيفة ثم حين يتساقطون على الأرض من التعب، تضيق الشوارع وتصبح الحقول هي المدى المنظور من وجه المدينة).

- ولكن كيف سترسم هذه الأشياء؟

- لا أعرف بالضبط. ربما تكون الكاميرا أفضل من محاولة التخيل.

جلس منصور على أحد الأرصفة في شارع ضيق. وابتدأ يلملم الحصى والحجارة، يضعها فوق بعضها، يجبلها بالطين الحار ثم يرميها على الأرض.

أمسكت بأهدابه. تفتتت الأهداب بين أصابعي. نظرت حولي. المشهد السابق نفسه. غرفة واحدة وبلا نوافذ. على السرير ينام رجل ضخم. أنا وهو وحدنا في غرفة شبه معتمة. على جدران الغرفة نباتات عارية لا تتمايل. كيف أتقدم صوبه. رفعت يده إلى أعلى فتساقطت اليد. اليد بيضاء والشعر الكثيف بدأ يذبل. جلست على طرف السرير. وتكلمت معه. أتكلم بصوت مرتفع، ثم حين انخفض الصوت بدأت أسمع ما كنت أقوله. فتراجعت إلى الوراء. فتحت عينيه، كان البياض كاسحاً. ولم أعثر على البؤبؤ في العين اليمنى. داخل غرفة معتمة وبلا نوافذ تساقطت يدي. وضعت فمي على أذنه وبدأت أصرخ أصواتاً في جميع اتجاهات اللغة. تراجعت إلى الخلف قليلاً، حنوت عليه. وضعت يدي تحت رأسه وقلت أنها وسادة. ارتجف رأسه. امتدت يدي خارجة من الوسادة، جلست في طرف الغرفة وبدأت أبكي. لماذا البكاء (بعد أن وضع منصور الحجارة فوق بعضها ومزجها بالطين الحار، ترك شكله على حافة الرصيف وبدأ يمشي. توغل في الطرقات بحثاً عن منزل ينام فيه. تعبت كثيراً، لا بد أن أنام. لم يناقش الفكرة. فلم يكن إلى جانبه أحد. وهو لا يناقش أفكاره وحده. تأتيه هكذا. لا لزوم للمناقشة، حين أكون وحيداً. تخيل منزلاً عتيقاً، يستطيع أن يجلس فيه وينام. ركض كثيراً ولم يلتفت حتى وصل إلى آخر بيت وجده في طريقه. كان البيت معتماً. طرق على الباب. لم يجاوب أحد. طرق مرة أخرى، فخرج صبي وقال له بأن الدفن غداً. دخلت وقلت للصبي أنني قادم الآن ولا لزوم للشكليات. بقي الصبي في الخارج، بحثنا عن الحطب وعيدان الثقاب. دخلت وحيداً إلى الغرفة. ظلام في كل مكان. وعندما بدأت الظلمة تتراجع عن عيني، تقدمت ووضعت رأسي إلى جانب رأسه.

ثم نهضت. تقدمت إلى صدره، وضعت يدي فوق القفص الصدري وبدأت أضغط بعنف. خرجت أصوات بلا مفاصل، تتضخم كلما ابتعدت عن الفم والأنف. هربت من السرير، جلبت ساعتي ووضعتها إلى جانب رأسه، وابتدأت أتمهل في خطواتي وأنا أمشي في غرفة صغيرة. غفوت على الأرض بضع لحظات ثم وقفت. سألته جميع الأسئلة. مددت له يدي وأمسكت به. أين يجب أن نتوقف. العين بيضاء ولا ترى. جلست في الضوء الشاحب الخارج من عينيّ لكنني لم أر شيئاً. دخل رأسي في بطني وصرت على شكل دائرة تستطيع أن تقطعها بحد السيف. وعندما قطعت الدائرة بحد السيف وقفت وابتدأت أضربه. لم يضربني. تحمل جميع الضربات وهو يترنح بين يدي. عندما انتهيت من ضربه، جلست على حافة السرير وكنت متعباً.

ضوء شاحب، رجل شاحب. زاوية ـ منصور هو الرجل، هذا واضح الآن على الأقل، رغم شحوب الغرفة ـ يتقدم يتراجع، ثم حين يجلس على الأرض، يبدأ الضوء في التراجع، حتى يصبح على شكل ظلال ترتمي خلف ظهره. نهض منصور. أمسك الظلال وبدأ يفتتها نقطة، نقطة. ثم انحنى على الأرض، وابتدأ يلتقط أهداب الرجل. أخذها ووضعها على جبينه. حاول أن يتكلم، إلى أين يقود الكلام؟ تخرج اللحظة الواحدة من عناوين الكتب التي حفظها وتتشكل مربعات قرب وجه الرجل ثم تراوح مكانها. دنا من الرجل، وضع الأهداب في مكانها الطبيعي. استلقى إلى جانبه في السرير. أمسك بيده. ينام الرجل على ظهره ومنصور كذلك. الرأسان متقاربان لكنهما لا يتلامسان. تقلب منصور على جنبيه وأصبح فمه إلى جانب الأذن.

ـ مجموعة من الرمال ـ ذهب الرجال إلى الشاطىء، كان الرمل نظيفاً وحاراً. تلتمع في وسطه حبات صغيرة من الحصى الملساء. أخذوا مجموعة

من الرمال، وابتدأوا يملأون الوسائد بطعم البحار. وحين تجمعوا على الرصيف المقابل، فرشوا وساداتهم على الأرض، اتكأوا عليها، وهم يروون حكايات البداية. ثم وضعوا الوسائد إلى جانب بعضها، رسموا دماءهم على الأرض، وتقاطعوا بأشكال مختلفة. الجانب الخلفي من أوجاعهم، كان على شكل حربة مسنونة لم يستطع أحدهم أن يغرسها في الأرض، فرسموا بها حدوداً وبقوا ضمن الحدود وهم يتمددون على الرمل الحار الذي يلتمع الحصى الأبيض في وسطه.

لا تزال الغرفة في مكانها. لم يرجع الصبي بأعواد الثقاب. وأنا وحدي هنا. لا أنتظر شيئاً. كنت قد اعتدت على رائحة الرجال، وامتزجت رائحة العرق الخارجة من جسدي برائحة الموت. وعقدنا صرخة جديدة على حدود السرير الذي تبلل برائحتينا. مستحيل أن تكتشف معنى أن أحاورك وحدي. تجمدت أصابع الرجل، وهي نصف مغلقة، أمسك بها كي أضع بين الأصابع مجرد محاولة. دخلت الوسادة وبقيت هناك. وعندما نظرت إلى وجه الرجل كانت قسماته لا تزال حادة. زحفت على الأرض وسط الرمال. خلعت قميصي جعلته علماً. توقف الرجال عن الموت لحظة ثم سقطوا.

يتساقط المطر. على أطراف الشارع تتجمع أجساد خمسة رجال على شكل مثلث، تطفو في وسطه بقع الدم، وأشلاء حمراء. والمطر يتساقط محمولاً على رياح عنيفة. يكبر المثلث والأجساد تتباعد، تغير نقطة الوسط من أمكنتها. وصوت المطر يبقى وحده، يتغلغل داخل الرياح، يروي لنفسه بوقار، قصة المثلث والحربة التي لم يغرسها الرجال في الرمال. خرج صوتي وكان محمولاً داخل المثلث في الأحياء الغريبة. تبعته. فوصلنا أمام تجمعات من الغضب. آلاف العيون التي يلتمع بريقها وهي تمسك بالدماء وتعيد تبويب الأحزان بهدوء حتى تصل إلى لحظة الحقد.

فاصلة أولى

الساحة التي تسمى اليوم، ساحة ٢٣ نيسان، لم يكن اسمها كذلك قبل الاحتفال الدموي الذي نسميه في ذكرياتنا مظاهرة.

مئات من رجال الشرطة. بنادق، هراوات، كمامات واقية، قنابل مسيلة للدموع ورصاص. يدخل الرصاص بين الرؤوس، يمزقها والبحر يتقدم. تتلاصق الأيدي، نبدأ بالركض صوب البوليس الواقف. ينهمر الرصاص. تخرج فتاة من المسيرة وهي تحاول الهرب. يتراجع المد، تمتلىء العيون بالحقد. نتقدم. يهدر الحقد. وقفنا، جمعنا صفوفنا وبدأنا نركض باتجاههم. تساقطت اللافتات وسقط الرجال ونحن نتقدم. جاءت امرأة. وقفت أمامنا وهي تحمل ثياباً ملوثة بالدم. اذهبوا يا مجانين إلى بيوتكم. اجلبوا البنادق وتعالوا. الحرب ليست مذبحة. الحرب حرب.

فاصلة ثانية

وقف يوسف العطار وهو يحمل دواليب المطاط. يضعها وسط الشارع ويشعل فيها النار ويصرخ. ترتفع آلاف الأيدي. فتيات يضعن على رؤوسهن المناديل ويتقدمن. والصوت الأحمر يخرج وهو يحرق جميع المسافات. وقف يوسف العطار وسط الجمع. احملوني، حملوه وبدأنا نردد الأهازيج التي تخرج من أوراق الريف؟ التي تفتتت. أمسكنا الآلات وأمرناها أن تسكت. حملنا الحجارة وأعلنت أحقادنا لحظة الحياة. ثم حين اطلقوا النار، وقف يوسف العطار وسط الجمع، احملوني، حملوه. وسقط الفارس مثل حبات المطر. حملناه ومشينا. والأيدي تتقدم.

فاصلة ثالثة

وحدها الأيدي تمسك لحظة الفرح.

يتساقط المطر فوق الأيدي، يمتزج الدم بالاسفلت وتتحول الشوارع، لحظة يتجمع حولها العابرون. تخرج الكلمات وهي مبللة بالدماء والعرق. تبحث عن شمس تقف تحتها كي تجف. أمسك الكلمة وأضعها على رأس قلمي وأقف بها على أطراف الأوراق. تمتد الكلمات على الورق وتغرق الدفاتر والأقلام برائحة الدم، وطعم الإسفلت المحروق على الدم. تلتقط يدي الكلمات وتبعثرها ثم تترك آثارها على الورق. دم لزج يتجمد على أطراف الأصابع، والكلمات تتمدد وهي ترتجف وقد ذبحت. ثم حين تتراقص الكلمات وهي تلفظ أنفاسها، أتمدد على الورقة وتتداخل في عيني ألوانها. أمسك بها بين أصابعي، فيتداخل نبضها مع نبضات دمائي. أرميها وأطوي الدفتر. أرمي القلم من النافذة وأركض إلى الشارع. أبطىء في سيري وأعود. أفتح باب غرفتي، وأفتح دفاتري فلا أجد آثار الحبر. رائحة رطبة تبعث من طاولتي. أجلس في مواجهتها. أمسك الأوراق، فأشاهد الكلمات وهي ترتجف وقد تشكلت على نسق كتل من المثلثات التي يمتزج فيها الدم والماء.

ـ تعالي.

تأتي امرأة مبللة برمال الرياح، تقف إلى جانبي. أمسك بشعرها وأقبلها على شفتيها. تسقط على الأرض. أمسك جسدها بين يدي. تمسك بوجهي، تضغط على رقبتي وترميني على الأرض. كيف أبكي؟ جلسنا على الأرض. باردة وتبعث لحظة من الرضى. مددت يدي وابتدأت أضع أوجاعي على حافة جسدها. شفتان مشققتان بالأوجاع ترتميان خلف خاصرتي والأوتار تتمايل بين نهديها. تعزف لشفتي لحناً يتناوب على قتلي لحظة لحظة. وحين امتدت أجنحة الموت، كان الجسد عرساً، والأرض تنغرس وحدها. خرج صوتي بطيئاً وابتدأت أضع الشعر على جسدها. أمد المرأة بالماء والنار تدخل في شراييني. ولحظة لحظة كنت أتمايل على إيقاع

دورتي الدموية. وأنشر في الهواء مجدي. نظرت في عينيها وامتلأت بالصرخة التائهة على رؤوس الجبال وصرخت. المرأة تتمايل، والأرض تتمايل، وعلى وجهها تمر آلاف الأيدي والكلمات، ويمتلىء الصوت. ثم حين أبدأ في التراجع تصرخ الأيدي بأن الزمان يتقوس على الباب، ولا يزال ينتظر. يرتمي تارة، يكسر رأسه ثم يعاود المحاولة. كيف نصل؟ جلسنا على الأرض. لحظة ارتعاشة خفيفة تتبع الموت. استلقيت على شعرها وأحسست بدفء الأرض. حدثتني عن الحب وهي تمسك بيدها طابة صغيرة. رمتها على الحائط فسمعت وقع الطابة ممزوجاً بصوتها. للحب طريقتان: الموت والدم. حين أضعك في جسدي أمزق جسدي بلحظة الوصول إلى موتك. بدأت تدندن لحناً خفيفاً. أكره أن أموت قبل أن أنجب ولداً. نظرت إلى عينيها وانتشر الأطفال على حدود الكلمات. وكانت الدماء لا تزال. أمسكنا الأوراق وفرشناها على الأرض العارية. جلسنا أمامها عاريين. بكت المرأة فيما كنت ألملم أوجاعي ومشيت.

الأوراق على الأرض. يقف الجسد أمام المثلثات التي ترتجف وهي تنزف دماً. والأنين يخرج من الأوراق. تبحث الكلمة عن نقطة شمس تقف في ظلالها. والشمس تغيب خلف الأصابع. أمسك الكلمات، أدورها حول الورق وأترك نقاط الدم التي تنزف من يدي تترنح وحدها. أجلس. كيف أستطيع أن أفكر هكذا. وأنا لا أزال أتمسك بالموقف، كيف أستطيع أن أجفف الأحرف حتى أستطيع متابعة الكتابة. الكلمة مجموعة أحرف، حين تدخل فم الرجل تصبح أصواتاً مشرطة بحروف العلة. لكن الأحرف لا تتجمع كما في السابق. تتناثر أشكالاً ترتجف. وهي ترسل أنيناً خفيفاً. لا بد من الخروج حتى أدنو منها. يجب على الأقل أن أعرض أظافري للشمس، حتى يجف عنها لون الدم. أمسكت مقبض الباب، فتحته على

مهل حتى لا تشعر الحروف بخروجي. عدوت في الشارع الخلفي. وقفت. كانت الشمس هناك لا تزال في مكانها. مددت يدي إلى الأمام وتركت الدماء تتجمد ببطء على الأظافر. في الغرفة تتحرك الأحرف ببطء. تتجمع حول بعضها. يدنو الأنين. تتحول المثلثات إلى مربعات. جسد رجل يتمدد على الأرض وقد جرحته آلاف السكاكين في جميع أنحائه. تجمع رجال القرية حول الجسد الممزق. أمسك بعقاله رماه على الأرض. وصرخ: الثأر. ردد الرجال من ورائه: الثأر. ثم حين خمدت أصوات الثأر جاؤوا بالكفن. لفوا الجسد به ووضعوه في القبر. ولا يزال القبر إلى اليوم يرشح دماً. في مثل هذا اليوم من كل عام يتجمع الفلاحون حول القبر حيث ترسل القبور صراخاً متواصلاً، وتنزف الدماء وتغطي القرى والسهول والمدن.

لكن أظافري حين بدأت تجف من ألوانها أحدثت صوتاً حزيناً وخافتاً. نظرت إليها، ورقة يابسة يحيط بها الغبار من كل مكان. وحين قررت العودة إلى غرفتي، بدأت الأظافر تتساقط على الأرض. ثم تساقطت يدي. وعندما دعست عليها من دون قصد وهممت أن أقول عفواً، سمعت صوتاً يشبه صوت تكسر الأوراق اليابسة.

- إلى أين نمشي ؟

نظرت إلى عينيها ولفني ظلام كثيف.

خرجتُ وحيداً وإلى جانبي امرأةٌ تقول إنّها تحبني. أحببتُها وابتدأتُ أروي لها القصص







كيف أبكي؟ شفتان مصفقتان بالأمواج ترتميان خلف خاصرتي والأوتار تتمايل بين نهديها.
نظرتُ في عينيها وانطلقتُ بالصرخة التائهة على رؤوس الجبال وصرختُ.
كيف نصل؟ لحظة ارتعاشة خفيفة تشع الموت. بكت المرأة فيما كنتُ ألملم أمواجي ومشيتُ.

- ٧ -

كنت أبحث عنه بين أنقاض الأحرف والمدن، لأنظر إلى عينيه وأرى لون الدماء حين تتجمع في العيون. مشيت مسافات لا تحصى. وكنت أقف أمام الرجال وأسألهم عنه. فيرفعون أكتافهم إلى أعلى ويجيبون بأصوات لا مبالية. لم نسمع بهذا الإسم من قبل. مشيت صوب الشاطىء وبدأت أعد خطواتي. وعلى الطرف الآخر من المدينة، كان يمشي صوب الشاطىء ويعد خطواته بحثاً عني. كنت أعرف أنه يبحث عني ولذلك لم أتوقف لحظة عن المشي باتجاهه. فأنا أحب ذاكرتي. وعندما التقينا كان ذلك مجرد صدفة، صدفة حقيرة تلغي جميع الاستعدادات النفسية. توقعت أني سأقفز عن الأرض وأصرخ. ولكني عندما نظرت إلى عينيه كنت بارداً مثل أي شيء آخر. نظرت إلى عينيه، نظر إلى البحر ولم يجاوب. أشار بيده إلى الأمواج، ثم أخبرني أنه يبحث عن سمكة يصطادها لأنه يحب شرب العرق. مشينا معاً وكنا صامتين مثل اسفلت الشارع.

- هل تعلم أنني في ورطة، ولا أعلم ماذا أفعل؟ أنا سجين هذه الدائرة الحقيرة والقذرة.

- لم أفهم.

أمسكني بيدي ومشينا معاً. ثم وقف وسط طريق ترابية تحيط بها الأبنية

من كل جانب وابتدأ يصرخ. ماذا جئت تفعل هنا؟ اتركني وحدي. أريد أن أموت وحدي، أحمل أغراضك وغادر.

لا بد وأنه لم يعرفني وهذا يفسر استقباله البارد، وهذيانه عن شاطىء البحر والسمكة. فنحن التقينا في هذه الدائرة التي تحيط بها الأبنية من جميع الجهات. ولم يكن هناك بحر. لا أعلم لماذا تكلم معي بهذه اللهجة. جلست على التراب. أخرجت سيجارة وأشعلتها. تقدم مني:

- ماذا تريد؟

- يبدو أنك لم تعرفني. نسيت الغابات والمدن.

- أنا لا أنسى، لكني أبحث عن أمي.

وقفت إلى جانبه. ثم نظر في عيني وصرخ: العكاريت الذين صنعوا أو كتبوا أو يعتقدون أنهم يكتبون هذه القصة، يريدون إرجاعي إلى الميتم. انظر ماذا فعلوا. هربت من الميتم ودخلت السجون والمستشفيات، ثم حين أخرج كي أبدأ معها قصتي الأصلية، أجد نفسي في طريق ترابية قذرة تحيط بها المياتم من جميع الجهات. كيف؟ المجانين يعتقدون أنني ما زلت صغيراً وأني سأقف كالمجذوب أمام الراهبة لتخبرني حكايات الأموات وبساط الرحمة. انظر إلى أظافري.

نظرت إلى أظافري، متشققة، وينزف منها دم غزير. طين وماء.

- لا بد وأن هناك خطأً في قصتنا. نستطيع أن نعيد صياغته. تعال نحذف بعض الأحداث ونعيد تأليفها. فنجد أنفسنا أمام البحر.

نظر إلى الأبنية. شبابيك رمادية تحيط بنا مثل حبال مرميَّة في كل اتجاه. حل حقير. أنا لا أحب الحلول الحقيرة. وقف إلى جانبي. انحنى حتى لامس رأسه التراب وأصبح شكلاً يدور على نفسه. يرمي أحقاداً تتكوم على

ظهره. وأنا إلى جانبه أمسك بحواسي حتى لا تفلت مني.

- أين أمي؟

- ولكن...

- أمي وحدها تموت.

- إسمع. لا أم لنا. اخترق هذا التراب.

نظرت إلى عينيها. امرأة شهية تمتد على يدي. لا أمل عندي.

- تقترح أن ندخل.

- ندخل ثم نحاول أن نفعل شيئاً.

- دخلت سابقاً ولم أفعل شيئاً. أدخل وحدك إذا أردت.

أحنيت رأسي. كيف أدخل وحدي؟

- لا، ندخل معاً. أخاف أن أدخل وحدي.

- اسمع، لا حل أمامنا. نبقى هنا لا ماء ولا طعام. هل تريد أن نموت من الجوع. ندخل ثم نعود إلى الهرب من جديد.

- ادخل وحدك.

استلقى على ظهره. استلقيت إلى جانبه. كيف أتوقف عن الموت. الشبابيك في كل الاتجاهات. كومنا الأتربة وبدأنا نرميها على الطرقات. لا طرقات. تأتي الأصوات وهي تغلق حواسها.

- أنت رجل فاشل، مثالي وحقير. كيف؟ هل تعتقد أنني جننت حتى أدخل؟ أريد الماء والبندقية. ولن أرجع مثل الحمار المربوط إلى الجثث.

- لا حلول.

نهض. أمسك بأوراقي وبدأ يمزقها. ثم عندما انتهى أمسك بالقلم،

كسره إلى نصفين. لن نزرعه. سوف نرميه فقط.

ـ تعال.

ـ إلى أين؟

ـ لن ندخل من جديد. لا بد وأن نجد الغابات.

مشى أمامي ومشيت خلفه. وكانت النوافذ العالية تحيط بنا.

أمي وحدها تموت. كيف أتوقف عن الموت.



أنا لن أنسى، لكني أبحث عن أمي.
العين بيضاء ولا ترعا. جلست في الضوء الشاحب الخارج من عيني لكنني لم أر شيئًا.
دخل رأسي في بطني وصرت على شكل دائرة تستطيع أن تقطعها يد السيف. أنا سجين هذه الدائرة

للمؤلف

روايات

- **عن علاقات الدائرة**: الطبعة الأولى ١٩٧٥، الطبعة الثانية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٥.
- **الجبل الصغير**: الطبعة الأولى ١٩٧٧، الطبعة الثانية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٤.
- **أبواب المدينة**: دار ابن رشد، بيروت، ١٩٨١.
- **الوجوه البيضاء**: دار ابن رشد، بيروت، ١٩٨١.
- **المبتدأ والخبر** (قصص): مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٤.

دراسات

- **تجربة البحث عن أفق**: مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، ١٩٧٤.
- **دراسات في نقد الشعر**: دار ابن رشد، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٩. الطبعة الثانية، ١٩٨١.
- **الذاكرة المفقودة**: مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٢.
- **زمن الاحتلال**: مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت ١٩٨٥.

عَن علاقات الدّائرة

كنت أبحث عنه بين أنقاض الأحرف والمدن، لأنظر إلى عينيه وأرى لون الدماء حين تتجمع في العيون. مشيت مسافات لا تحصى. وكنت أقف أمام الرجال وأسألهم عنه. فيرفعون أكتافهم إلى أعلى ويجيبون بأصوات لا مبالية. لم نسمع بهذا الإسم من قبل. مشيت صوب الشاطىء وبدأت أعد خطواتي. وعلى الطرف الآخر من المدينة، كان يمشي صوب الشاطىء ويعد خطواته بحثاً عني. كنت أعرف أنه يبحث عني ولذلك لم أتوقف لحظة عن المشي باتجاهه. فأنا أحب ذاكرتي. وعندما التقينا كان ذلك مجرد صدفة، صدفة حقيرة تلغي جميع الاستعدادات النفسية. توقعت أني سأقفز عن الأرض وأصرخ. ولكني عندما نظرت إلى عينيه كنت بارداً مثل أي شيء آخر. نظرت إلى عينيه، نظر إلى البحر ولم يجاوب. أشار بيده إلى الأمواج، ثم أخبرني أنه يبحث عن سمكة يصطادها لأنه يحب شرب العرق. مشينا معاً وكنا صامتين مثل اسفلت الشارع.



الياس خوري



مؤسّسة الأبحاث العربيّة ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان